

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

اليوم الموعود

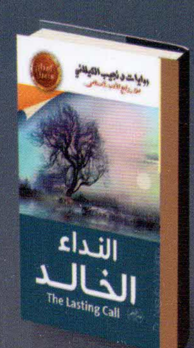
The Promised Day

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا











Design by Abdul Rahman Magdy



[ياقوتة ملحمة الحب والسلام]

الفائزة بجائزة أحسن رواية
فى مسابقة المجلس الأعلى
لرعاية الآداب والفنون

دكتور: نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٩١٢٩

الترقيم الدولي:
978-977-255-363-1



أضواء على القصة

القصة - بمفهومها الدقيق فن.

والتاريخ علم..

والفن الحقيقى هو مزيج من التميز الناجح الذى يضم بين ثناياه أفكارًا حية نابضة تتسم بالإيجابية المجدية . .

ومن هنا كانت القصة التاريخية عملاً أدبيًا ثريًا يحتاج إلى مزيد من الدقة والبراعة؛ لأن التاريخ يمدها بالوقائع الثابتة؛ ويفرض عليها روحه وأجواءه الخاصة، وصياغة التاريخ فى قصة يخرج به عن كونه علمًا جافًا، ويدرجه فى باب الفن الذى يمتع ويثير، ولهذا فإن المزيج الناتج من خلط الوقائع التاريخة بالقواعد القصصية مزيج يحتاج إلى يقظة الصيدلى ودقته، وإلا تحولت القصة إلى كتاب تاريخ، أو على النقيض من ذلك -أعنى تشويه الحقائق التاريخية والعبث بها . . .

وشىء آخر، وهو تصوير الكفاح القومى، والكرامة الوطنية، وهذا أمر فى غاية الحساسية، إذ إن اللجوء إلى النغمة الخطابية،

وافتعال المواقف النضالية، وتسجيلها فى سذاجة مستغلاً فى ذلك الاصطلاحات (أو الكليشيهات) المحفوظة، كل هذا قد يبعث الملل فى نفس القارئ، وينفره من التكلف الظاهر الذى تصرخ به أحداث القصة وعباراتها . . .

فأما التاريخ . . .

والإخلاص للفن . . .

والواجب الوطنى . . .

هذه الثلاثة تجعل من القصة التاريخية مسئولية كبرى، وتجعل طريق النجاح فى إبرازها محفوفًا بالكد وإمعان الفكر.

ولا شك أن حسن توزيع الأحداث التاريخية، وإظهار مغزاها، واستنباط آثارها يكون أدعى إلى الإعجاب، وأقرب إلى النجاح إذا ما حاول الكاتب أن يربط أشخاص القصة بالأحداث، ويحاول أيضًا أن يلجأ إلى التنويع فى سرده التاريخى، كأن يدس فى الحوار الجارى بين الأشخاص بعض الحقائق، أو يدع الأشخاص أو الأحداث نفسها تعبر عن التاريخ وترسم صورة صادقة له بطريقة غير مباشرة، ومن الخطأ أن يكتب صفحات طويلة مليئة بالتاريخ الخالص -كما يفعل بعض أدبائنا- لأن ذلك يجعل من القصة كما قلنا كتاب تاريخ.

إن اللمحة الخاطفة المؤداة ببراعة وتوفيق قد توحى بما لا توحى به الصفحات الطويلة من السرد الجاف.

لكن، إلى أى مدى يفرض الكاتب ذاته على القصة؟

إن الفن انفعال وتعبير، فالذاتية فيه هى الأساس، ولكن الذاتية بغير الموضوعية -وخصوصًا فى القصص التاريخى- لا تكفى، ثم إن الموضوعية لا يمكن فصلها عن الذاتية؛ لأنها تستطيع أن تثير انفعال الكاتب، وتحرك مشاعره، فتمتلئ بها ذاته، ويخرجها قلمه إخراجًا خاصًا ذا ملامح معينة يمت بصلة إلى نفسية الكاتب ونظرته.

●●●

وقد اقتضت الظروف التاريخية أن يهتم مؤرخونا القدماء بأخبار الملوك والكبراء ويربطهم بالأحداث، ويشيروا إلى الشعوب نفسها إشارات مجملة لا تكفى، ولا تشفى غليلاً، فما أكثر الأبطال المغمورين الذين ذهبوا ضحية الواجب دون أن تذكر عنهم كلمات تفصيلية فى كتب التاريخ، ولكى نعبر عن الكفاح الشعبى ونعطيه المكانة اللائقة به كان من الواجب أن ننتزع منه شخصية تمثله -وما أكثر الشخصيات- وإذا كانت كتب التاريخ لم تحرص على تسجيل الأسماء، فلن نحيد عن الحقيقة أو الأمانة التاريخية إذا ما لجأنا نحن إلى الشخصيات الموضوعة، إلى جانب الشخصيات الحقيقية التى ورد ذكرها فى بطون الأسفار.

●●●

ونقطة أخرى هى النزعة الإنسانية فى القصة..

إن النزعة الإنسانية تلقى على النزعة الوطنية أو القومية أضواء، وتزيدها عمقًا وثراء وشمولاً.

لقد حاولت قدر جهدى وأنا أكتب هذه القصة أن أقتل تلك المعانى المهمة التى أشرت إليها فى السطور السابقة، كما حاولت أن أناقش - على ألسنة أبطال القصة- قضايا مهمة، كقضية الدين والحروب، ومطامع المغامرين وعشاق المجد، وحقيقة الحياة وأهدافها؛ متخذًا من قصة الكفاح العربى الرائع مع الغزاة القادمين من الغرب مسرحًا لذلك.

ولقد تبين لى أثناء دراستى للحملة الصليبية السابعة وملابساتها، أن مصر لم تكن تخوض حربًا واحدة، وهى صراعها مع المعتدين، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تخوض معركة مريرة ضد الطغيان الداخلى المتمثل فى توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، فكانت المعركة التى يخوضها الشعب داخلية وخارجية فى الوقت نفسه، فأعطت بذلك صورة كاملة للنضال الأمثل الذى دارت رحاه فى هذه الحقبة التاريخية المهمة.

لقد كان توران شاه مثلاً للحاكم المستبد.

وكانت «زمردة» مأساة مجسمة لطغيانه.

وكان «عدنان بن المنذر» رمزًا للشعب الذى يتألم ويصبر، لكنه يهب لنجدة بلاده متناسيًا أحزانه الذاتية.

وكان «مارسيل» الفرنسى - الذى ورد ذكره فى مذكرات جوانفيل باختصار -مثلاً للمخدوعين والمغرورين والحالمين بالأمجاد الزائفة.

وكان لويس أنموذجًا للتدين الضيق، والعصبية العمياء . . .

وكانت «ياقوتة» آية أخرى من آيات الإبداع النسوى الذى يبدو جليًا إذا ما أعطيت للمرأة حريتها المعقولة، وحطمت الأغلال التى تغللها، وقذفت بها الأقدار فى معترك الحياة .

وكان الاتحاد العربى والإسلامى فى هذه المعركة ضرورة تاريخية لا غنى عنها كأى عصر من العصور .

لهذا ترانى لم أسجل حادثة من الحوادث أو أبرز شخصية من الشخصيات أو أجرى حوارًا، إلا وكان ذلك هدفًا وغاية كبيرة .

فهل ترانى بلغت ما أريد؟

أرجو ذلك .

نجيب الكيلانى

●●●

الشخصيات الأساسية فى القصة

شخصيات تاريخية:

الملك الصالح نجم الدين أيوب .

شجرة الدر .

فخر الدين بن شيخ الشيوخ .

توران شاه .

الملك لويس التاسع .

الأمير دارتوا – شقيق الملك لويس .

الجندى مارسيل .

البطريرك روبرت .

شخصيات موضوعة:

عدنان بن المنذر .

زمردة .

عبد الأعلى بن سلمان .

ياقوتة الغجرية .

هذا عدا بعض الشخصيات الثانوية الأخرى (تاريخية أو موضوعة) .

●●●

الفصل الأول

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب مضطجعًا على سريره، محملقًا بنظراته الغاضبة فى سقف الحجرة، وكانت ملامح وجهه الصارم تنبئ عن ألم مكبوت، وثورة مكظومة، وتفكير عميق، ولمَ لا يفكر وتمتلئ نفسه حنقًا وثورة؟ إنه لم يشعر بالراحة أو ينعم بالهدوء فى يوم من الأيام، وحياته كلها مزيج من الغربة والمغامرات والآلام، كان له فى كل خطوة كمين، وفى كل طريق مؤامرة، فذاق مرارة الأسر، وقسوة السجون، وتعرض للموت فى جنح الظلام، حتى طعامه كان يقبل عليه فى إشفاق وخوف مما قد يدس له فيه من سموم... أهكذا تنقلب حلاوة الملك إلى مرارة، وتتحول أضواء السلطة والمجد إلى مخاوف ونذر شر، ويصير الهدوء والنعيم أرقًا وشقاء مقيمًا؟!

وتململ الملك الصالح فى فراشه وأرسل تنهيدة حارة، ثم زحف بأنامله إلى حيث تثوى تلك القرحة الدامية بين الفخذ والساق من الخلف، وتحسسها فى رقة مخافة أن يزيد فى آلامها، ثم سعل فى عنف، وسرعان ما سحب يده ووضعها على صدره الذى أخذ يهتز

مع كل سعلة، وبعد لحظات خفت نوبة السعال، فارتمى الملك على فراشه فى إجهاد وقد احتقن وجهه، ونزلت قطرات من عينيه.

وقبل أن يستطرد الملك الصالح فى تفكيره، انفتح باب الحجرة فى هدوء وبرز منه وجه متألق، فيه نضرة وجمال، وفيه خوف وإشفاق، وحينما رفع الملك عينيه، غمغم فى صوت مبحوح:

- هل أتيت يا شجرة الدر؟

فأسرعت وجثت جوار السرير، وهى تقول:

- أنا طوع أمرك يا مولاى... لقد سمعت سعالك فهرولت إليك مذعورة، آه يا مولاى، كم أتمنى أن أفديك بروحى وحياتى وأتحمل عنك أعباء هذه الأوجاع!

فمر الملك براحة يده على جبينها الناصع، وتحسس شعرها الناعم الذى تفوح منه رائحة المسك، وإزارها الحريرى، ثم قال وقد أشرق وجهه بفيض من السعادة:

- سلمت يا شجرة الدر، أيتها الزوجة الفاضلة، إن طلعتك الباسمة تمسح عن نفسى الكثير من الآلام.. آه.. وماذا نعمل لأمراء بنى أيوب؟ إن كلاً منهم يقيم لنفسه عرشًا، ويمسك بيده صولجانًا، حتى أحالوا البلاد إلى جماعات متفرقة متناحرة، والطمع يدفعهم إلى الاستزادة من السيطرة، ويجرهم إلى الحرب التى لا طائل تحتها بعد أن كنا مضرب المثل فى التآلف والتماسك،

وهكذا نترك القاهرة رغم ما بنا من الأوصاب والأوجاع، لنرد صاحب حلب عن غيه واعتداءاته علينا.

فقالت «شجرة الدر»، وقد ازدادت منه اقترابًا:

- لا عليك يا مولاى... إنك أقوى من أن يطمع فيك طامع، أو يناوشك مغرور.

- وماذا تقولين فى صاحب حلب الذى تجرأ علينا؟

- ما أحسبه إلا خائفًا على عرشه، يظنك قادمًا عليه فى أية لحظة لتقضى على مؤامرته، وأطماعه الضيقة، ومن ثم بادر بالمناوشة وهذا منه جنون ورعونة ولن يجنى من وراء ذلك إلا الدمار.

وشعر الملك بغير قليل من الراحة، واستعاد هدوءه وشيئًا من نشاطه، فنهض من رقدته، واتكأ على عدد من الوسائد الحريرية، ثم قال:

- ما أشقى الملوك!

فقالت وهى تبتسم:

- الملك متاعب ودم ومعارك، وما أظن مولاى إلا ندًا شجاعًا لكل الأهوال والصعاب، أتحسب يا مولاى أنك ستنعم بالهدوء، وتخلد إلى الراحة إذا صفا الجو، ووضعت السيوف فى أغمادها؟

فقال الملك وقد ارتاح إلى لباقة حديثها وجمال ثنائها عليه:

- صدقت يا شجرة الدر، فأنا أحب الحركة والنضال، وأمقت

أشد المقت حياة الدعة والخمول، إنها موت قبل الموت، لكن ليس معنى ذلك أن أخلق لنفسى المتاعب، وأفتعل المعارك بلا مبرر.

- حاشا لله يا مولاى. . . ما قصدت ذلك.

- أعرف ذلك يا حبيبتى. . . إن آمالى أوسع مما تتصورين يا شجرة الدر ليس مجرد الرغبة فى المجد والبطولة هو الذى يدفعنى ويحركنى، إن أول شىء أفكر فيه هو أن أجمع هذه الممالك الصغيرة المتنافرة. . . إن مصر والشام وما جاورهما أمة واحدة، وبقاؤهم على هذه الصورة من التمزق والتشتت أمر يدعو إلى الأسف والحزن. . . لهذا ترينني أحلم باليوم الذى تجتمع فيه كلمة هذه الأمة، ولن يكون ذلك إلا بالقضاء على هؤلاء المغامرين الطامعين من أمراء بنى أيوب وغيرهم، إن مصلحة الأمة فوق أواصر القرابة والأطماع الذاتية الضيقة.

فانحنت شجرة الدر فوقه، وقبّلت جبهته فى تقدير وإعجاب وهمست:

- أهذا كل ما تفكر فيه يا مولاى؟».

فضغط على يدها فى عاطفة جياشة، وأغمض عينيه لحظات، ثم قال فى نبرات رقيقة نابضة بالانفعال:

- أنا واثق أنك تعرفين ما أكنه لك فى قلبى.

فضحكت، وقالت:

- إن سداد رأيك، وثقتى فيك، وعطفك السابغ علىّ تمدنى بالكثير من الثبات والصبر.

- لست يا شجرة الدر مجرد زوجة وفية؟ بل أنت رفيقة كفاحى وآلامى وآمالى.. لكن..

فقالت متهلفة:

- ما أعظم سعادتى وأنا أستمع إلى هذه الكلمات. لكن ماذا يا مولاى؟

- لا شىء...

فقالت فى دلال جذاب:

- أتخفى عنى شيئًا؟

- كلا يا شجرة الدر... وإنما قصدت أن المرض الذى ألمّ بى هذه الأيام قد بعث فى نفسى التمرد والملل، إنه شىء فظيع أن أنال الأعداء وأنا على سرير المرض.

- إن زئير الأسد يثير الرعب والفزع على مسيرة فراسخ عديدة.

وفى هذه اللحظة تناهى إلى سمعها صوت جارية تغنى بصوت عذب من قصائد الشاعر البهاء زهير، وتقول:

إنى لأهوى الحسنَ حيثُ وجدتهُ

وأهيمُ بالقدِّ الرشيقِ وأعشقُ

يا عاذلى أنا من سمعتُ حديثَه

فعساك تحنو أو لعلك ترفقُ

لو كنت منا حيث تسمع أو ترى

لرأيت ثوب الصبر كيف يُمزقُ

ما أطمعَ العذالُ إلا أننى

خوفًا عليك إليهم أتملقُ

وكانت شجرة الدر أثناء سماعها للفتاة تميل برأسها الجميل يمنة ويسرة، وتختلس النظرات إلى وجه مليكها بين آونة وأخرى، وحينما وصلت الجارية إلى المقطع الأخير، قالت فى نشوة:

– ما أجمل هذا الشعر يا مولاى!

– إن شيطان البهاء زهير خبيث...

– أجل يا مولاى، لكأنه يسرق هذه الألحان الساحرة من وادى عبقر..

وهبت شجرة الدر واقفة، وقالت:

– ما رأى مولاى فى أن أحضر المغنيات والعازفات ليرفهن عنك بضع لحظات؟

فعادت الصرامة إلى وجه الملك، وقال فى لهجة آمرة:

– كلا يا شجرة الدر.. نحن فى معركة، ولسنا فى مقصورة من مقاصير السمر والندمان.

– عفوًا يا مولاى، ما قصدت غير إسعادك والتخفيف عنك،

ولا شك أنك تذكر يا مولاى مقالة الرسول: «روحوا عن قلوبكم ساعة بعد ساعة».

وفى هذه الأثناء، كان صوت الجارية يقترب رويدًا رويدًا، وانبسطت أسارير الملك مرة أخرى، عندما سمع الجارية تغنى وتقول فى مدحه:

ملكٌ يحدِّث عن أبيه وجدِّه

سندٌ لعمرك فى العلا لا يلحقُ

سجدَتْ له حقٌّ العيونِ مهابةً

أو ما تراه حين يقبلُ تطرقُ؟

وانقطع الغناء فجأة، وسمعت حركة لدى الباب، ووقع أقدام تروح وتجىء، وهمسات وغمغمات متبادلة تنبئ عن شىء، فأصاخت شجرة الدر السمع، بينما قال الملك:

- ماذا هناك؟

فاتجهت شجرة الدر ناحية الباب، وهى تقول:

- حالاً يا مولاى.. سوف أستجلى حقيقة الأمر.

وقبل أن تصل إلى هناك، تناهى إلى سمعها ضربات خفيفة على الباب... ودلفت إحدى الجوارى، وقالت منكسة الرأس:

- أبلغنا قائد الحرس يا مولاى أن رجلاً غريبًا فى زى التجار نزل دمشق الليلة وجاء يطلب مولاى.

فقالت شجرة الدر:

- أهذا كل ما فى الأمر؟ ولِمَ لا ينتظر حتى الصباح؟

- إنه تاجر عنيد ويلح فى طلب السماح له بمقابلة مولاى.. ثم إنه يزعم أنه يحمل رسالة خطيرة من بعيد، ورفض أن يسلمها لأحد.

وقبل أن تجيب شجرة الدر أسرع الملك قائلاً:

- حسنًا... دعوه ينتظر... سوف أخرج إليه.

فأحنت الجارية رأسها وخرجت، بينما قالت شجرة الدر:

- إنك لم تشفَ تمامًا من وعكتك يا مولاى، وكان الواجب ألا تزعج نفسك بشىء.

فقال الملك الصالح فى غير اكتراث:

- هونى عليك يا عزيزتى... لن يؤخر ذلك أو يقدّم فى آجالنا، لننتصر على المرض ونسخر منه... ثم إن الرسائل تثير فى نفسى الشوق الغامض دائمًا، فلا أكاد أشعر بالراحة والاستقرار إلا إذا علمت ما فيها.

فقالت مستسلمة:

- لن يكون فيها غير الخير والبشرى لمولاى..

●●●

الفصل الثانى

كان التاجر يلهث من شدة التعب، وكان غبار السفر لا يزال عالقًا بأهدابه وشعره وملابسه، وسرعان ما أشار إليه الملك الصالح بالجلوس، وهو يقول متودداً :

- أما كان من الأفضل لك أن تستريح قليلاً فى قصر الضيافة؟

فقال التاجر فى نبرات متقطعة، يعوقها تلاحق أنفاسه :

-إن الأمر أخطر من أن نؤجله حتى الصباح يا مولاى . . إنى أحمد الله إذ جعلنى أبلغ دمشق، بعد أن تجشمت المخاطر، وقطعت القفار، ولم أكف عن المسير فى النهار أو فى الليل . . وعندما نفق جوادى ولم أستطع الحصول على غيره واصلت رحلتى على قدمى . .

وابتسم التاجر محاولاً أن يتغلب على أمارات التعب والإنهاك التى ترتسم على ملامحه، وتبدو فى مقاطع حديثه، وقال مستطرداً :

- غير أن تحقيق ما ننشده، ينسينا الكثير من الآلام التى تكبدناها . .

وأجال الملك النظر فى هذا التاجر الغريب ، ثم أطال فيه التدقيق دون أن يدرى من أمره شيئًا ، كما لاحظ الملك تغيرًا فى لهجته ، وسحنة وجهه ، فخيل إليه أن هذا الزائر الغامض أبعد ما يكون عن اللسان العربى والجنس العربى ، وتيقن الملك الصالح أن وراء هذا الرجل شيئًا ، مما أثار مزيدًا من الفضول فى نفسه ، وجعل رغبته فى معرفة السر أشد اشتعالاً ، ولم يطل انتظار الملك ، فقد هب التاجر واقفًا وانتزع ملابس التجار التى يرتديها ، فظهر من تحتها فارس شاب متزن القوام ، رائع السمت ، وسرعان ما دس يده فى جيب خفى داخل سترته ، ثم أخرج منه رسالة ملفوفة فى شريط من حرير أخضر ، وقدمها إلى الملك الصالح الذى لم يكد يفيق من دهشته ، حتى غمغم :

- هذه رسالة من مولاى الإمبراطور فردريك الثانى . .

فقال الملك الصالح وقد أخذته المفاجأة وعلته الدهشة :

- أتقول من فردريك؟

- أجل يا مولاى . . وهو يتمنى لك حظًا سعيدًا ، وانتصارًا مؤزرًا . .

وكانت تربط الملكين صداقة متينة ، وصلة قديمة ، كما كان بينهما مواثيق ومعاهدات منذ أيام الملك الكامل والد الملك الصالح تتعلق بأملاك المسيحيين فى الشرق ، وتأمين طريق الحج ، ورعاية الأماكن المقدسة ، وحماية شعائرها الدينية ، وشاع عن فردريك أنه أميل إلى

الإسلام منه إلى المسيحية، وفى الوقت نفسه لم يكن على وفاق دائم مع البابا، مما أثار عليه حنق الكنيسة وغضبها . .

قال الملك الصالح وهو يحاول أن يفك أربطة الرسالة ويعالجها برفق :

- وكيف حال مولاك؟ كم يسعدنى أن أتلقى رسائله الكريمة من آن لآخر . . .

فأجاب الرجل :

- إن مولاى بخير . . ولم يحدث له ما يعكر الصفو اللهم إلا تلك المؤامرات الساذجة التى يديرها له البابا بعد أن فشلت حروبه معه، وبعد أن باءت تدبيراته لقتل مولاى بالخزى والعار، ومع ذلك فإن مولاى يحاول دائمًا أن يظهر بمظهر المسالم المتسامح حتى لا يجرح الشعور الدينى لدى أبناء شعبه . .

- «حسنًا» . . قالها الملك الصالح دون وعى، فقد كانت عيناه على السطر الأول من الرسالة، و كان باله مشغولاً تمام الانشغال بشأن ما تتضمنه هذه الرسالة من أمور قد تكون خطيرة .

وبان الجد والاهتمام على وجه الملك الصالح وهو ينتقل من سطر إلى سطر، ثم تغير وجهه واربدّ، واحتقنت عيناه غيظًا وحنقًا، وساد وجهه شحوب ووجوم، وتقلصت يداه على الرسالة فى عصبية ظاهرة، ثم اتجه إلى حامل الرسالة وعيناه تقدحان بالشرر، وتكلم وهو يصرُّ على أسنانه من الغيظ :

- أحدث هذا فعلاً؟

فهز الرسول رأسه بالإيجاب دون أن يحرك شفتيه، فقال الملك:

- منذ متى؟

- إنهم يحشدون الحشود منذ زمن بعيد.

- وأين هم الآن؟

- فى قبرص يا مولاى منذ شهور.

- منذ شهور ونحن نغط فى نوم عميق.. حسنًا..

فقال الرسول:

- كانوا يواصلون استعداداتهم بالليل والنهار، ويجلبون الجنود من شتى أنحاء أوربا، فجمعت حملتهم مزيجًا عجيبًا من الأمراء والنبلاء والأشراف، والسوقة وغصت بالمغامرين وعشاق المجد.. حتى مولاى الملك فردريك لم يجد مناصًا من أن يساعدهم ببعض المال والجند لكى يتقى غضبة الشعب المسيحى، ويفوت على البابا فرصة وصمه بالخيانة..

وهب الملك الصالح واقفًا، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، متناسيًا آلام القرحة، والمرض الخطير الذى يعشش فى صدره، لقد كان وقع الخبر الذى حملته إليه رسالة الملك فردريك شديد الوطأة، عميق الأثر، يزلزل أعتى الرجال قوة، وأعظمهم بأسًا، والتفت مرة ثانية إلى الرسول، وقال:

- ومن قائد هذه الحملة؟ .

- الملك القديس . . لويس التاسع . . ملك فرنسا . . فهز الملك الصالح رأسه فى أسى وأسف، وقال :

- جنت على نفسها براقش . . أعنى أنهم سوف يسيرون فى الطريق الدامى الرهيب نفسه الذى سار فيه أسلافهم، وسيجدون فى كل بقعة حفرة من جحيم، أو قبراً من عذاب وظلام، وسيكمن الموت لهم فى كل خطوة يخطونها . . أيها الرسول الكريم شكراً لك ولمليكك . . فلتبلغه عنى أعظم التحيات التى تليق بمقامه السامى . . وانتظرنى حتى الصباح كى أسطر له رسالة . . .

●●●

وانحنى الرسول الكريم وخرج، بينما وقف الملك الصالح فى الحجرة حائراً، يفكر فى تلك الكوارث والمحن التى تنثال عليه انثيالاً، ففى الشرق أمراء ثائرون يتربصون به الدوائر، وفى الغرب حدث انفجار مروع، فها هى ذى جموع الصليبيين بقيادة الملك القديس لويس التاسع توشك أن تنقض على سواحل مصر، وتلتهمها التهاماً، وعما قريب تحتشد السفن والطشت والشوانى فى البحر وتكاد تحجب الشمس لكثرتها، وهذا بالإضافة إلى الداء العضال الذى ينخر فى صدره، ويدمى ساقه . . وشعر الملك الصالح بالضيق والحيرة تفيضان به، وأحس كأنما هناك أيد غليظة شرسة تطبق على عنقه، وبدا الجو حوله كأنه مشحون بالمؤامرات، فأخذ يدق الأرض بقدمه، لعله ينفث عن تلك الثورة المكبوتة فى داخله . .

ونشر أمامه كتاب الملك فردريك الثانى من جديد، وأخذ يعيد تلاوته ثم غمغم: «ألف وثمانمائة سفينة. . عشرات الألوف من الجنود والفرسان. . قساوسة ورهبان يذكون الحماس، ويحرضون على القتال. . فرسان المعبد أو الداوية يترنمون بأناشيدهم الدينية التى تلهب العزائم. . استعدادات ضخمة. . إمدادات من كل أنحاء أوربا. . من إنجلترا وفرنسا وجنوا والبندقية. . حتى فردريك لم يجد مناصًا من أن يمدهم بما يحتاجون إليه بالرغم من أنه لا يؤمن بمثل هذه الحروب، ويعتبرها حماقة عديمة الجدوى». . .

وهز الملك الصالح رأسه، ثم أخذ يجفف العرق الغزير المتقاطر على جبهته، وعاد ليقطع الحجرة، ورأسه مسرح لدوامة عاصفة من التفكير، ثم توقف عن الحركة بعد لحظات، وقال محدثًا نفسه فى صوت مرتفع:

- والآن. . ما العمل. . ؟.

وأيقظه من أفكاره الصاخبة صوت شجرة الدر التى دلفت إلى الحجرة وهى تقول- والابتسامة لم تغادر شفتيها:

- خيرًا يا مولاى. . ماذا فى جعبة ذلك الرسول القادم من وراء البحار؟.

فأجابها الملك فى قلق:

- بل الشر المستطير يا شجرة الدر. .

فقالت فى لهفة وقد اختنقت الابتسامة على ثغرها:

- ماذا؟

- جنود كالسيل الجارف، وأسطول يسد الأفق، وحقد أسود رهيب يزحف نحو شطآن مصر . .

فهمست وقد شحب لونها :

- ماذا تقصد يا مولاى؟

فأجاب فى صوت مهتاج :

- عاد الصليبيون للمرة السابعة . . هذا ما أبلغنيه فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا . .

- كارثة لم تكن تخطر لنا على بال فى هذا الوقت بالذات .

- وأية كارثة ياشجرة الدر! لقد زعم فردريك أيضًا أن لويس التاسع قد تحالف معه المغول، والرسل يروحون ويجيئون بينه وبين طائفة الإسماعيلية وزعيمهم شيخ الجبل، إن ذلك الملك المغرور يحاول أن يأخذ علينا كل طريق، ويضمن لنفسه النصر الأكيد بعد أن أذقناهم الويل والهزيمة فى الحروب الست الماضية . .

فشردت شجرة الدر لحظات، ثم قالت وقد بدا التأثر فى نبراتها :

- لكأنى بلويس يعود محطمًا مهزومًا، ويتسلل من الطريق نفسه الذى تسلل منه أسلافه من قبل .

- ما أسهل أن نحلم بالنصر يا شجرة الدر . . لن تكفى الأحلام والتمنى يا عزيزتى، بل يجب أن نصحو . . أن نفعل شيئًا وإلا خسرنا كل شيء . .

كانت ذات ذكاء ودهاء، وكان ذهنها أنشط ما يكون عندما تدلهم الخطوب وتنعقد الأحداث، وكان الملك الصالح يأنس لرأيها، ويرتاح لحديثها، ومن ثم قال:

- فما رأيك يا شجرة الدر؟

فأجابت فى ثقة وثبات:

- سنعود غداً إلى مصر..

- وهؤلاء المتمردون؟

- نهادنهم ونتنزل لهم عما يريدون..

- يا للذل!. ولكن ألا يطعنوننا من الخلف؟

- كلا يا مولاى.. إن العدو القادم من الغرب يريد أن يحتل بيت المقدس والشام فى حقيقة الأمر، ومن ثم أراد أن يضرب مصر لأنها قلعة الشرق، وحصن الملة الحصين، ومعنى ذلك يا مولاى أن الغزاة الصليبيين لم يتركوا أميراً من أمراء المسلمين فوق عرشه.. إنه عدوان على الجميع.. وأعمل الملك الصالح الفكر فى روية وتأنٍ.. ووقفت شجرة الدر إزاءه تنتظر ما يقول.. وأظلهما جو القلق والحيرة؛ لأن الأحداث سريعة متلاحقة، لا تدع فرصة كافية للاختيار أو التدقيق، ومن ثم قال الملك الصالح نجم الدين أيوب:

- إلى مصر غداً يا شجرة الدر..

- على بركة الله يا مولاى..

الفصل الثالث

لم يكن للناس حديث غير عودة الفرنجة لشواطئ مصر الشمالية ومجيء الملك الصالح من دمشق ليتخذ التدابير العاجلة لملاقاة الغزاة، ولم يكن وقع هذه الأنباء على المصريين بالهين اليسير؛ لأن مثل هذه الحرب المتوقعة لن تحمل فى ثناياها غير الدمار والموت والآفات.

وعلى شاطئ النيل- فى مقابلة قصر المماليك البحرية- كان يقوم بيت متواضع من طابقين، تبدو عليه آثار القدم، ويحيط به بستان مهجور قد جفت أشجاره أو كادت، ونبتت على أطرافه النباتات الشوكية والصبار وبضع نخلات معوجة يعشش فوقها اليوم، وأمام البيت يجلس رجل أعمى قد امتد به العمر، يعيش على التكسب من قراءة القرآن.

وفى حجرة خافتة الضوء من حجرات هذا البيت جلس عدنان ابن المنذر صامتًا؛ لكن عينيه كانتا تتأرجحان فى قلق وحيرة، أما أمه فقد جلست جواره وقد انحنى ظهرها، واشتعل رأسها شيبًا وإن على تجاعيد وجهها ما فعلته السنون السبعون من تغيير، وما تركته النكبات من آثار عميقة.

وغمغمت الأم في صوت مرتعش النبرات:

- ليتك لم تهرب من سجنك يا عدنان.

فتغير وجهه ، وظهرت عليه علامات الغضب، وقال :

- كنت أحسبك على شوق ولهفة إلى لقائي . .

فأسرعت الأم قائلة:

- أوَتشك في ذلك يا حبيبي؟

فحملق عدنان فيها دهشًا، ولعله ظن في هذه اللحظة أن كبر السن قد عبث بعقل أمه، فجعلها تنطق بكلمات ما كان يصح أن تنطق بها، غير أنه أفاق من دهشته، وقال:

- فما معنى ما تقولينه إذن؟

- لقد نمى إلى سمعي اليوم يا ولدي أن السلطان الصالح قد أصدر أمره بالعفو عن جميع الخطاة والمسجونين ففتحت السجون أبوابها، وخرج نزلاؤها ليكفروا عن خطاياهم بالاشتراك في صد الفرنجة المعتدين، ولو بقيت في سجنك أسبوعًا واحدًا لكنت ضمن الذين أطلق سراحهم ولما أصابتك الرضوض المؤلمة التي لم تزل آثارها باقية في جسمك . .

وسكتت الأم بينما انطلق عدنان قائلاً:

- عام كامل أقضيه في السجن بلا ذنب جنيته، ثم تلومينني على فراري؟ ومن أدراك أنهم كانوا سيطلقون سراحي أنا الآخر؟ أنسيت

أنى غـــريم توران شـــاه ابن السلطان؟ ألا تعلمين أن من عـــادى السلاطين أو أبناءهم إما أن يذوق الموت، وإما أن يترك فى ظلام الأسر تأكله القيود ويذيبه الظلام؟

وكف عدنان عن الحديث ليلتقط أنفاسه اللاهثة، بينما قالت أمه:

- وماذا جنيت بفرارك؟ إنك تعيش الآن فى سرداب مظلم تحت الأرض، ولا تجـرؤ على الظهـور أمـام الناس.. بله الجلوس فى صالة البيت.. إنك عنيد يا ولدى، وعنادك هو الذى يورثك هذا الهم الطويل، وينتقل بك من ورطة إلى أخرى..

فأجابها وابتسامة مخيفة تلمع فوق ثناياه:

- طيبى نفسًا يا أماه... لسوف أخرج إلى النور.. وسأنطلق حاملاً سيفى لآخذ بثأرى من الطاغية توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب.. إنهم يزعمـون أنه سوف يرث الملك بعد أبيه، لكن ذلك لن يكون ما دمت على قيد الحياة.

فقالت الأم وقد اجتاحتها موجة من الغضب:

- ما لنا ولتوران شاه الآن يا ولدى؟ من أنت حتى تتصدى له؟ بعوضة تحاول أن تزحزح جبلاً، هذه هى الحقيقة، ثم إنه فى حصن كيفا، وبينك وبينه آلاف الفراسخ.

- قولى ما شئت، لو كان فى آخر الدنيا لانطلقت خلفه.

- أوه.. يا لك من مجنون!

- بل فى تمام عقلى . .

- كذبت . . إن طلب الثأر يعميك عن إدراك حقيقة وضعك، أنسيت أن زحف الفرنجة على مصر قد يقضى على توران شاه، وعلينا- لا قدر الله-؟ .

وأفاق عدنان من ثورته المحتدمة على آخر عبارة تفوهت بها أمه .

كان جديرًا به أن يفكر فى ذلك ألف مرة، فالمأساة الجديدة أكبر منه ومن توران شاه، وحقده على الغزاة المغيرين يجب أن يكون أضعاف أضعاف حقده على توران شاه، إن الصليبيين فى حملتهم السابقة على مصر قد قتلوا أباه- وهو من جلة علماء مصر- وكان عدنان آنذاك جنينًا فى بطن أمه ومن ثم أورثوه اليتم قبل أن يرى وجه الحياة، وحرموه من نعيم الأبوة، فشب فى كنف أمه ضعيفًا خائفًا، وشرب كأس الأحزان منذ سنينه الأولى، وعاش على ذكرى أب حسن السيرة اغتاله الغرباء وهو عنفوان الشباب . . .

وهل ينسى عدنان أنه كان يسأل أمه فى طفولته عن أولئك الذين قتلوا أباه، فكانت أمه تجيبه قائلة : «إنهم هناك بعيدًا خلف البحار لا سبيل إلى الوصول إليهم»، ثم يبدى رغبته الشديدة فى الانتقام منهم والثأر لأبيه، فتقول له : «نم يا صغيرى ، ولتقرأ الفاتحة على روح أبيك ولتطلب من الله أن يدخله الجنة» . . فيثور عدنان الصغير

آنذاك، ويقول لها: «ولمَ لا يدخل أبى الجنة؟ ألم تخبرينى أنه مات شهيدًا، وأن الشهداء مأواهم الجنة»؟ . .

فتربت أمه على رأسه فى حنان، وقد تبللت عيناها بالدموع، وتهمس فى أذنه كى ينام، موهمة إياه أن أباه الشهيد سوف يرضيه أن ينام وأن يستمع إلى كلام أمه، فينام عدنان، وبينما يسترق الكرى خطاه إلى جفنيه، تطوف حول سريره خيالات كثيرة مختلطة، ورؤى ساحرة جذابة، يرى أباه البطل الشهيد يحول بسيفه طورًا فى الميدان، أو يتبختر فى ثيابه الحريرية الخضراء فى رياض الجنة طورًا آخر، ثم يعود ليحلم بتلك البحار الواسعة التى يفد من ورائها الغزاة الحمر ليقتلوا ويسلبوا ويثيروا الفزع والروع، ثم يولوا الأدبار فى النهاية ويعودوا إلى أراضيهم الغامضة البعيدة ملوثين بدماء الشهداء والأبرياء. . .

●●●

هكذا كان عدنان يفكر ويستعيد أيام الطفولة وخيالاتها رغم ما فيها من ذكريات مريرة، لكن تيار أفكاره انقطع فجأة عن هذه الناحية، ووثبت على الفور إلى ذهنه صورة توران شاه ابن السلطان. . . إن مجرد تذكره يفجر فى قلب عدنان مراجل الغيظ والنقمة. .

فأية حادثة تلك التى أرثت الحقد، وأذكت لهيب الثأر بينهما؟ . . إن توران شاه خليع عربيد، يصبح ويمسى على الخمر،

ويغشى مجالس الندماء، ويجرى خلف النساء، وله ثلة من أسوأ الأصدقاء، يحتمون تحت نفوذه، ويلوذون بكنفه، ثم يصخبون ويعربدون مثلما يفعل رائدهم ابن السلطان، ونفسية توران شاه نفسية طفل صغير على الرغم من أنه فى أوج شبابه فقد كانت يده عامرة بكل خير، وفى قصور أبيه كل ما تشتهيه نفسه، لكنه كان فريسة للطمع، يحلو له دائمًا أن يستولى على ما فى يد غيره، ويشعر بمزيد من السعادة والسطوة حينما يفعل ذلك...

وكان أبوه الملك الصالح يعرف عن مخازيه الكثير ويحاول جاهدًا أن يحسن تربيته، ويصرفه عن غيه، ويعده لوراثة العرش من بعده، غير أن الوالد كان يشعر بالحزن والأسى حينما يرى ولده يمعن فى استهتاره، ويتمادى فى مباذله، ومن ثم قَذف به بعيدًا عن مصر إلى حصن كيفا فى مواجهة بعض الأعداء المتمردين، لعل هذه الغربة وهذه المسئولية الجادة، لعل هاتين تغيران من سلوكه، وتكشفان له عن الدور المهم المنوط به بعد أبيه..

ولم يكن عدنان بن المنذر هو الشخص الوحيد الذى اصطدم بتوران شاه وقاسى طغيانه وتعسفه، ومع ذلك فقد كان عدنان يحس أن الموت أهون لديه، وأروح لنفسه من حياته البائسة تلك، ومن عجزه التام عن أن يثأر لكرامته، وينتقم لجرحه العميق.

فأية كارثة تسبب فيها توران شاه؟؟

وأى جرح غائر تركه فى قلب عدنان الشاب؟؟

الفصل الرابع

كانت جارية حسناء تعرف عدداً من اللغات الأجنبية، وكانت ذات أدب ووفاء وجمال، سمراء فاتنة طويلة أهدابها، عاشت مع عدنان بن المنذر سنوات عدة، وأخلصت له الحب، وبادلته عاطفة قوية جارفة، لم تعد جاريته المشتراة بمال، بل أصبحت منه وأصبح منها، وربطت بينهما وشيجة قدسية فوق المال والدنيا والمطامع، وأحس عدنان إلى جوارها بأحاسيس عذبة ندية، وفى جمالها الريان، وروحها الصافية ترعرعت آماله، وتفتحت زهرات شبابه.

وذات يوم قال عدنان لأمه:

- ما رأيك فى زمردة يا أمى؟

- زمردة؟!

- أجل...

- جارية طيبة مطيعة، تؤدى كل ما يوكل إليها من أعمال فى حرارة وإخلاص، ولهذا لا أفكر فى بيعها أو النزول عنها لأحد رغم ما نحن فيه من ضائقة مالية.. ثم إنها ترفه عنا بأغانيها الشائقة العذبة.

لم يكن يريد عدنان أن يسمع منها ذلك، كان يهدف إلى معنى آخر لم تفطن إليه أمه، ولهذا قال:

- أعنى ما رأيك فى عتقها؟

- أتريد أن تعتقها؟

- ولِمَ لا؟ إنها إنسانة نبيلة وحرام أن نسلبها حريتها.. فقالت الأم فى دهشة:

- إن أحدًا منا لم يتعرض لحريتها بسوء، أوَ ما تراها تفعل ما يحلو لها، وتأكل ما تشاء، وتنام فى الوقت الذى تختار، وتؤدى أعمالها الخفيفة التى نكلفها بها دون تأفف أو نفور؟

غير أن عدنان لم يرق ما تقوله أمه، فضلاً عن أنها ما زالت فى واد غير واديه ولم تفهمه حق الفهم، عندئذ قال وقد بان فى لهجته الجد:

- ليست الحرية يا أمى مأكلاً ومشربًا ونومًا...

- فماذا تكون إذن يا عدنان؟

- إنها مجرد شعور أو إحساس معنوى فوق الأشكال والماديات، لقد اشتريناها بمال وهى تعلم أنها أمة لنا مهما أضفينا عليها من برنا وعطفنا، بل إن البر والعطف عليها فى هذه الظروف نوع من الإحسان والصدقة، وهذا يؤلم النفوس الأبية أشد الإيلام.

فتململت أمه فى حيرة، وقالت:

- ماذا تريد أن تقول؟ إنى لا أكاد أفهمك.

فأجابها فى صراحة مذهلة :

- أريد أن أتخذ زمردة زوجة لى .

- وما الذى يلجئك إلى ذلك؟ إنها ملك لك وكفى .

- لا أريدها كذلك ، ولهذا السبب أشير عليك بعتقها .

ففكرت الأم قليلاً ، ثم رفعت رأسها ، وقالت :

- وهل مانعت زمردة فى تحقيق رغباتك؟ إنها جارية مطيعة .

فقال عدنان محتداً :

- قلت لك لا أريدها جارية ، وإنما زوجة حرة . . . ولن أسألها رأيها فى الزواج منى إلا بعد أن أعطيها الحرية الكاملة فى أن تقول لا أو نعم ، لا أريد أن أفرض نفسى فرضًا عليها ، وأستعبد عواطفها استعباداً باسم ملكيتنا لها . . . ليس هذا من الحب فى شىء .

وبعد نقاش حاد وحوار طويل ، استعمل عدنان فيه كل ما وهبه الله من قوة منطق ، وعدته أمه بالتفكير فى عتقها ، وتلبية رغبته الملحة . . . وشعر عدنان آنذاك بفيض من السعادة يثلج صدره ، وأسرع إلى زمردة يزفُّ إليها بشرى العتق القريب ، وأشرقت ملامحها وهى تستمع إليه ، ثم أنغضت رأسها حياء وخجلاً ، وعندما ألمح إلى موضوع الزواج فى تورية محببة ، وأطال عدنان النظر إلى تقاطيع وجهها الفاتن الذى تبدو فيه آثار حزن شفيف عميق ، اختطفت نظرة خجلى إلى وجهه المستدير الأسمر ، ولحيته

القصيرة وعمامته التى حبكها بطريقة عربية بارعة، وزحفت ببصرها إلى صداره الصوفى وسرواله الممتد من وسطه إلى أخمص قدمه، كان كل شىء فيه جميلاً ومحبوبًا، فلم تتمالك أن خفضت رأسها فى حياء . . . أما هو فقد خفق قلبه خفقات حلوة، ارتجف لها كيانه، وجف إزاءها حلقه. لسوف يحاول أن ينسيها أحزانها العميقة الجذور، فإذا كانت بلا أهل، وبلا وطن، وإذا كان النخاسون قد اختطفوها صبية غضة دون شفقة أو رحمة وباعوها بدنانير معدودة، وإذا كانت آلام الغربة، وشعور الوحدة يعذبانها، إذا كان كل ذلك يسبغ على وجهها الجميل خماراً شفافًا من الحزن، فسوف يحاول عدنان جاهدًا أن يكون لها أهلاً، وأن يجعل موطنه لها، وأن يجعلها توقن أن الدنيا فيها قلوب كبيرة، وعواطف نبيلة لا تقاس بقوة الحياة، وغلظة النخاسين، وأن الوطن يكون حيث الحب والصفاء، وعاد عدنان يفكر فى زمردة.

ما الذى يجذبه إليها، ويجعله يفكر فيها ليل نهار؟

هل هى تلك المظاهر المادية من الجمال والفتنة الصارخة، أم أن هناك أشياء غامضة أخرى تملأ قلبه بحبها، وتجعله يندفع وراء هذا الحب اندفاعًا مجنونًا؟

أم أن فيها شيئًا مشتركًا قد ألف بين قلبيهما -أعنى ذلك الحزن والألم الذين مسا قلبيهما، وشابا حياتهما وإن اختلفت الملابسات والظروف؟

وعندما أطل المساء فى تلك الليلة ، آوى عدنان إلى فراشه ، لكنه لم يستطع أن ينام ، فقد ظل يفكر فى ذلك اليوم الموعود الذى سوف تتكرم أمه فيه ، وتطلق حرية زمردة بالفعل .

●●●

وكانت زمردة جارية حسنة الصوت ، تجيد الغناء وتتقن العزف على العود ، كما أنها كانت حافظة لكثير من شعر العرب وأخبارهم فجمعت بذلك إلى جمال الخلقة ، جمال الصوت والعزف والتأدب ، لهذا تردد اسمها فى المجالس ، ولهجت الألسنة لفتنتها وعبقريتها ، وكان ذلك كفيلاً بأن يبعث الغيرة فى قلب عدنان ، ويثير فى نفسه الخوف الغامض ، فازداد حبًا لها وتعلقًا بها ، فلم يتوانَ عن أن يتخذ تلك الإجراءات السريعة التى دهشت لها أمه ، وأمهلته حتى تعيد النظر فيها . . ولم يكن عدنان يعلم أن هناك أشياء تدبر له فى الخفاء ! وفوجئ بعد أيام بكوكبة من الفرسان المماليك تدهم بيته ، ثم تسوقه إلى السجن ، وهو فى حيرة من أمره لا يدرى ماذا جنت يداه حتى يوردوه هذا المورد الأليم ، وتجمدت الدموع فى عين والدته التى لم تستطع هى الأخرى أن تجد أية مبررات لما يدور أمام عينيها ، بينما صعقت زمردة ووقفت مذهولة لا تستطيع أن تتلفظ حتى بكلمة الوداع ، وحينما نظر إليها عدنان وهم يجرونه خارج البيت ، أشاحت بوجهها فى مرارة وأطلقت العنان لدموعها كى تخط سطراً جديداً فى صفحة حياتها الدامية ، ويا له من سطر !

وبرح الخفاء، واتضحت خطوط المؤامرة الدنيئة، حينما انتزعت زمردة بعد ثلاثة أيام من البيت الذى عاشت فيه، وألحقت قهراً بحاشية الأمير توران شاه ابن السلطان، ولم يستمع أحد لتوسلاتها وضراعتها، كما ضربوا عرض الحائط باستفسارات الأم الحزينة التى تركوها وحيدة بعد أن قذفوا بابنها إلى السجن، واغتصبوا جاريتها لتنضم إلى حريم السلطان، وصرخت الأم فى أعقالها وقد فهمت كل شىء، وقالت:

- لكم الويل يا آل أيوب... إن الله لن يرضى عن ذلك الظلم، وسترون أن هذا بداية النهاية لدولتكم وانحدارها نحو المغيب.

وحينما انتهت من صراخها تلفتت جولها فلم تجد أحداً... لقد ذهبوا بالجارية.

أما هى فقد بقيت رهينة الدموع والصمت وشتاء الشيخوخة البارد المجدب.

لقد أراد توران شاه زمردة لنفسه، بعد أن بلغته أنباؤها، وترامت إليه أوصالها، وأدرك أن الاستيلاء عليها لن يكون بسهولة ويسر، فهو يدرى الكثير عن عناد عدنان وتشبثه بها، وقد يثير هذا المتهور - عدنان- ضجة كبرى ربما تصل إلى أسماع أبيه الملك الصالح، فتكون الطامة الكبرى التى قد تعرض توران شاه للتعنيف، بل العقاب الشديد والحرمان من وراثة العرش، ولهذا رأى أن يقذف بعدنان إلى السجن كخطوة أولى، ثم يتبع ذلك بإرغام زمردة على

الانضمام إلى رهطه، موقنًا أنها سوف تنسى حبها وعهدها لعدنان ما دامت ستكون فى حماية الأمير ابن السلطان نجم الدين ملك مصر، وحاميها الأول، وهل هناك امرأة تأنف من صحبة الملوك، وتعاف المجد الذى يتقاطر عليها فجأة؟

●●●

وهكذا عاش عدنان عامًا كاملاً فى السجن، يؤرقه حبه الضائع، ويحنقه العسف الواقع به، ويثير أشجانه أمه المسكينة التى تحيا بلا سند فى الحياة، ويهيج حنينه زمردة التى لم يعد يعلم عنها شيئًا سوى أنها رافقت الأمير توران شاه -على الرغم منها- فى رحلته إلى حصن كيفا الذى لم يعد منه بعد.

وكان مرور الأيام والليالى يزيده حنقًا إلى حنقه، وكلما ثقلت عليه الآلام، وأوجعته الغربة، يصر على أسنانه مغتاظًا؛ ويهتف بالثأر من ذلك الطاغية الأنانى؛ ماذا يفعل وهو بين جدران أربعة؛ لا يدرى ماذا يجرى خارجها؟

وتسرب اليأس إلى نفس عدنان حتى أنه فكر فى التخلص من الحياة كى ينجو بنفسه من آلامها وعذابها، ولكن طيف أمه العجوز التى تنتظر عودته ذات يوم؛ وصورة زمردة المجهولة المصير، والأمل فى الغد؛ كل ذلك صرفه عن التمادى فى مثل هذه الخواطر السوداء، ولهذا تحول يأسه إلى ضرب من المغامرة، وعدم المبالاة، ففكر فى الفرار من سجنه دون النظر إلى ما يترتب على ذلك من

نتائج، وظل يفكر ويدبر ويتحين الفرصة حتى أتيحت له، وفى ليل حالكة السواد عاصفة الريح، تسلسل إلى أعلى السجن، ووثب فوق نشز بجوار السور، فأصيب ببعض الرضوض التى لم تزل آثارها باقية فى جسده رغم مرور أسبوع كامل عليها.

وخرج عدنان من السجن لا يفكر إلا فى الثأر.

لكنه سرعان ما وجد مصر كلها مثل مرجل يغلى.

ووجد الناس كلهم مشغولين عن ذواتهم وخصوصياتهم بالحدث الكبير الذى هزهم هزًا، وقلب أمنهم إلى روع، وأحال هدوءهم إلى صخب.

وعادت إلى ذهنه على الفور صورة ذلك الماضى البغيض، منذ ثلاثين عامًا حينما تحولت الأرض حول أسوار دمياط إلى بركة من الدم، وتساقط آلاف الشهداء صرعى ومن بينهم أبوه الذى لم يره.. وتصارعت فى نفسه نوازع شتى.

إنه بين نارين: إما أن يتجاهل أمر الغزاة الفرنجة، وينسى واجبه نحو بلاده، وينطلق مدفوعًا بثورة الحقد والثأر إلى حصن كيفا كى يثأر من توران شاه، وإما ألا يفكر فى الانتقام منه الآن، وينضم إلى أبناء جلدته، ويزحف صوب دمياط لملاقاة المعتدين والثأر لأبيه.. ولأمه.. ولحقه فى الحياة.

وغمغم عدنان: «لكن أية حياة تلك التى نحياها فى ظل العسف والعبودية؟ إن الأرض أرضنا ولكنها ليست لنا، وأمراء

بنى أيوب رغم ماضيهم المجيد، وتاريخهم الحافل، قد نبت من بين صفوفهم فئة تظلم وتطغى، أأسلم قيادى لمثلى هؤلاء، وأحارب رايتهم فإذا ما انتصروا عادوا ليسرقوا النساء، ويثيروا الفزع، ويتحاربوا من أجل السيطرة والمطامع الشخصية؟ لا . . لا، هذا لن يكون».

غير أن عدنان تذكر ما قالته له أمه منذ لحظات . . «إن طلب الثأر يعميك عن إدراك حقيقة وضعك، أنسيت أن زحف الفرنجة قد يقضى على توران شاه وعلينا جميعًا لا قدر الله؟ . . ».

عندئذ غمغم بينه وبين نفسه، وهو يبتسم ابتسامة حزينة: «أليس من العار أن أتجه إلى حصن «كيفا» لأنتقم لنفسى، وجموع الشعب تسارع إلى دمياط لترد الصليبيين؟ . . . صبرًا يا توران شاه . . . لن أنسى إساءتك البالغة، وإذا لم تؤدبك الأقدار، فسوف أؤدبك بنفسى ولو كان فى ذلك حتفى . . . ثم من يدرى؟ قد تكون زمردة اليوم غيرها الأمس، وربما أصبحت متيمة بك، أسيرة لهواك وأنت ابن الملوك، إنها لم ترسل إلىّ بأية رسالة، ولم تفكر مرة فى أن تبعث إلىّ بشىء من أنبائها وتطورات الموقف بالنسبة لها، فهل هذا وفاء وحب وعهد؟ . لا . . لا . . قد تكون زمردة غير جديرة بأن يضحى من أجلها وتركب المخاطر فى سبيلها».

وقطع عليه تفكيره صوت أمه، وهى تقول:

– فيم تفكر يا ولدى؟

- أفكر فى كل شىء . . ولا شىء . . أكاد أحس أنى قد انتقلت إلى سجن جديد من صنع نفسى، ليس من الضرورى يا أماه أن يكون السجن قضبانًا وأسوارًا وسجانًا، بل إن الإنسان وهو فى أتم حريته قد يشعر بالأغلال والقيود تلتف حول عنقه ومعصميه.

فقالت الأم فى نبرة مؤمنة حية:

- هوّن عليك يا حبيبى . . . دع الملك للمالك، وارم بأعبائك على الله، وماذا يفعل العاجز المقهور سوى أن يسلم أمره لله وينتظر ما تأتى به المقادير؟

فغمغم عدنان فى صوت حالم:

- أجل . . . غدًا يا أماه.

فقالت وقد نمّت ملامحها عن همٍّ شديد:

- أما زلت مصرًا على اللحاق بتوران شاه فى حصن كيفا؟ النساء كثيرات يا ولدى، وليس من الصواب أن ترصد حياتك، وشبابك من أجل امرأة.

فأجابها عدنان:

- كلا لن أذهب إلى كيفا . . . لسوف أمضى إلى الشمال نحو المنصورة حتى ألحق بركب المجاهدين . . . إن توران شاه أتفه من أن أفكر فيه الآن، هناك ما هو أكبر لقد فكرت فيك أنت.

- فىّ أنا يا ولدى؟

- أجل . . وتصورت الشياطين الحمر وهم يدهمون بيتنا، وينتهكون حرمة شيخوختك . . . وعشرات الألوف مثلك، فهالنى ذلك، لسوف أذهب إلى الميدان، وسأحاول جاهدًا أن أدفن آلامى فى غمار النضال . . . إنهم أشد طغيانًا من توران شاه . . . إذا كان توران شاه قد اختطف امرأة واحدة . . . فالفرنجة سوف يختطفون كل شىء، وإذا كان قد وضعنى فى السجن وحيدًا قرابة عام، فسوف يحول الغزاة مصر إلى سجن كبير يسام فيه أبناء أمتنا العذاب لسنين قد تطول ولا يعلم مداها إلا الله . . .لكن . .

- ولكن ماذا يا حبيبى؟؟

قالتها وقد أشرق وجهها المتغضن بابتسامة واهنة، فقال:

- سوف أحارب وحدى . . لن أكون تحت قيادة أحد، إنى لا أستطيع أن أتصور نفسى بين أولئك المماليك الذين أخذونى إلى السجن بلا ذنب، وانتزعوا منى زمردة . . أجل . . زمردة.

وهمت أمه أن تقول شيئًا، لكن عدنان لم يعطها الفرصة، بل هبّ واقفًا، واندفع خارجًا.

●●●

الفصل الخامس

وفى اليوم الرابع من شهر يونيه عام ١٢٤٩م تقاطرت سفن الحملة على الشاطئ، وأسرع جنودها إلى معسكرهم الذى أقيم قبالة دمياط، ولاحت لهم عن كثب مدينة دمياط بأسوارها وحصونها وقبابها، وقد انبسطت من حولها الأراضى الخضراء التى تأخذ العيون بروعتها، وجلالها، واكتست سماؤها الصافية بلون أزرق بديع يوحى بالسحر والقداسة وأجال الملك لويس بصره فى هذه الربوع الخضراء، ثم ملأ رئتيه من هوائها النقى المنعش، فكأنما أسكرته هذه الروعة، فقال لزوجته الشابة الجميلة:

- انظرى يا عزيزتى مرجريت.. أليست هذه البلاد جديرة بأن نضحى من أجلها، وتعلو الصلبان فوق هامتها، وتدق فى آفاقها الأجراس صباح مساء؟؟

فأجابت الملكة مرجريت:

- حقًا ما تقول... لكن ألست معى فى أن المتعبين لا يحسون بغير الرغبة الجانحة فى النوم؟ يا لها من رحلة طويلة مضنية تلك التى قطعناها من قبرص إلى هنا؟!!

فأخذ لويس بيدها مترفقًا، وهو يقول :

- لا بأس . . انظرى إلى تلك القصور الشاهقة هناك خلف الشاطئ . . لن تمر أيام قلائل إلا وتنزلين فيها معززة مكرمة، وعند ذلك سوف تنسين كل ما لحق بك من متاعب . .

فقالت مرجريت :

- أوَ تظن الأمر بهذه البساطة؟ إن هؤلاء المسلمين قد جبلوا على العناد وما أظنهم يتراجعون أمام جحافلنا إلا بعد كفاح مرير .

- كلا يا عزيزتى . . لعلك تشيرين إلى ما تكبده أسلافنا منذ ثلاثين سنة فى هجومهم على هذه المدينة .

- هذا ما أقصده فعلاً .

- إنى أعلم يا عزيزتى أن طريقنا ليس مفروشًا بالورود؛ لكن تأكدى أن الله معنا .

فقالت مرجريت مداعبة :

- وأعداؤنا أيضًا يعتقدون أن الله معهم .

●●●

وفى بلدة أشموم طناح؛ أقام الملك الصالح نجم الدين أيوب وحاشيته وكثير من رجاله؛ وقد انتقل إليها على محفة، إذ إن المرض كان اشتد عليه وأقعده، وبقيت إلى جواره شجرة الدر تشد من أزره وتبذل له المشورة، وبرغم المرض الذى اشتدت وطأته

عليه، فقد كان يواصل التدبير ليل نهار، ويثير الحماس بين الجماهير، ويرفع من روحهم المعنوية بل إن مرآه على هذه الصورة، وتفانيه فى التضحية برغم مرضه، جعل الناس ينظرون إليه نظرة تقدير وإعجاب فيلبون إشارته، ويلتفون حوله ويمضون فى الطريق الذى يرسمه لهم..

وحاول الملك أن ينهض من فراشه، لكنه وجد فى ذلك مشقة، فبان الضيق على ملامح وجهه، وطلب من شجرة الدر أن تحضر إليه الرسالة الواردة من لويس، فأسرعت بتلبية طلبه على مضض؛ لأنها كانت تعلم أنه كلما قرأ الرسالة جرت الدماء حارة فى عروقه، وانقلبت سحنته ودهمه غيظ جارف، ومع ذلك فقد كان الملك الصالح يصر على قراءة الرسالة من آن لآخر، إذ إنه كان يحس فى الوقت نفسه بأن هذا الغيظ الجارف يزيد حماسه، ويذكى من لهيب ثورته، ويجعله يمعن فى التفكير ويتحرق لهفة للانتقام من هؤلاء المعتدين، وأخذ يقرأ الرسالة للمرة العاشرة:

- «أما بعد: فإنه لم يخفَ عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية، وأنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لى بكل الأيمان ودخلت على القسوس والرهبان وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان، ما ردنى

ذلك عن الوصول إليك وقتالك فى أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لى فيها هدية حصلت فى يدى، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليك، فيدك العليا ممتددة إلىّ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء . . ».

وألقى الملك الصالح الرسالة جانبًا . .

كان تعسًا حزينًا رغم أنه لم يدخر وسعًا فى تجهيز الجنود، وإعداد العدة لكل طارئ؛ كان يريد أن يقوم بنفسه، ويتقدم الجنود، ويلتقى بلويس وجهًا لوجه، ويلقنه درسًا قاسيًا من جراء تلك الرسالة التى تصرخ سطورها بالتحدى، وتمعن فى الغرور؛ وأدركت شجرة الدر بنظرتها الصائبة، وفكرها الثاقب ما يعتمل فى ذهن الملك من خواطر، فقالت :

- هوّن عليك يا مولاى، إن ألفاظهم الطنانة مثل الطبل الأجوف تمامًا، ولسوف يغرقهم الغرور فى طوفان من دمهم النجس .

فقال الملك :

- شىء فظيع يا شجرة الدر أن يتحداك عدوك ويدعوك للنزال، فيقعدك المرض عن أن تفحمه .

- ليس المهم أن تكون أنت بلحمك ودمك فى مواجهة لويس، يكفى أن روحك القوية الوثابة تسيطر على جنودنا، وتملؤهم قوة

وثقة وتقف للمغيرين بالمرصاد . . إنك فوق محفتك أقوى منك على صهوة جوادك يا مليكى العظيم .

وكفت شجرة الدر عن الحديث برهة، ثم أخذت تسأله عما ينتويه، هل سيرد على رسالة لويس أم يتجاهلها، وهل عنده جديد بشأن المستقبل أم لا؟ فأخبرها الملك أنه سوف يرد على رسالة لويس بطريقة أخرى، إن رده الحاسم هو أن يحمل جنوده يحيلون النيل إلى مقبرة للغزاة الكثيرى العدد .

عند ذلك قالت شجرة الدر :

- يا لها من عبقرية فذة يا مولاى! لكأنى بقائدنا الهمام فخر الدين بن شيخ الشيوخ وهو يخترق صفوف مهاجمى دمياط، ويذيقهم الهوان؛ ويمرغ أمجادهم فى التراب؛ و. . . . .

فقاطعها الملك قائلاً :

- ولا تنسى فرسان بنى كنانة، إن هؤلاء الصناديد لن يدعوا لويس يمر إلا على أشلائهم .

وأطنبت شجرة الدر فى ذكر محاسن فخر الدين القائد العبقرى، وأثنت على إخلاصه وحسن بلائه، ثم تركت لنفسها العنان، فأخذت تتصوره وهو فى الطليعة صوّالاً جوالاً، لا يهاب موتًا ولا يرهب نزالاً، وأدركت شجرة الدر بغريزة الأنثى الدقيقة الحساسة أن زوجها غير مرتاح تمامًا لحديثها عن فخر الدين بهذه اللهجة الصادقة، وهذا الحماس المندفع؛ فاندفعت قائلة :

- وماذا يكون فخر الدين بغير تدبيرك وحنكتك؟ إنك قطب المعركة يا مولاى؛ ومدبرها البارع الحصيف.

وكان هذا الكلام مجرد مجاملة لزوجها الملك؛ ولم تمنعها المجاملة من الإعجاب بفخر الدين ولم تصرفها عن التفكير فيه، وكيف لا، وهى التى أشارت على الملك الصالح بتسليم القيادة لفخر الدين وتنحية أمراء المماليك عنها مما أثار حولها الشائعات، وأغضب منها بيبرس، وأقطاى، وأيبك وغيرهم من زعماء المماليك؟.

وفى المساء حدث ما لم يكن فى الحسبان، وساد الهرج والمرج أشموم طناح، وتواترت الأنباء المزعجة من كل مكان، واكتظت البلدة بحشود ضخمة من المهاجرين الذين هربوا من دمياط بجلدهم، تاركين وراءهم كل شىء، دون أن يؤملوا فى غير النجاة.

لقد فتحت دمياط أبوابها للغزاة من الفرنجة، ولم يكن أحد يسمع فى شوارع أشموم طناح غير هذه العبارات:

- «فرسان بنى كنانة ينسحبون..».

«القائد فخر الدين بن شيخ الشيوخ يخلى المدينة فجأة هو وجنوده..».

«الفرنجة يذبحون كل من وقع فى أيديهم من الأهالى..».

«الأعداء سيواصلون الزحف إلى القاهرة. . .».

وسمع الملك الصالح وهو على محفة المرض بما جرى، فمادت به الأرض، وأظلمت الدنيا فى عينيه وبدا له أن الموت كان أخف وطأة عليه من هذه الأنباء الرهيبة، يا للسخرية المريرة؟ أتستسلم دمياط بين يوم وليلة وهى التى وقفت فى وجه العدوان الصليبى السابق صامدة كالجبل، تتكسر لدى أسوارها موجات زحفهم العنيد؟ أكان هذا هو الرد العملى المفحم الذى أراد أن يرد به على رسالة لويس؟. . الاستسلام التام؟ أين أبطال بنى كنانة؟ بل أين مهارة فخر الدين القائد الشجاع الذى تتغنى ببطولته وأمجاده شجرة الدر، والتى ألحت فى تعيينه قائدًا للجيش؟. . أين. . أين؟ أشياء كثيرة كانت تدور فى رأس الملك الصالح وهو يتململ من الغيظ، وينقلب على أحر من الجمر، ويضرب بقبضته على صدره، حتى لكأنه يريد أن يصرع ذلك الداء الخبيث الذى أعجزه عن القيام بدوره على الوجه الذى يرضيه. .

وصرخ السلطان الصالح كالأسد الجريح صرخة اهتزت لها جنبات القصر وأمر بقواده وحراسه أن يأتوا، وحينما التأم الجمع قال فى كلمات صارمة لا تقبل الجدل أو المناقشة:

- «لتقبضوا على زعماء بنى كنانة الخمسين، ولتفصلوا رءوسهم عن أجسادهم، وليعلقوا على قارعة الطريق، ليكونوا عبرة ومثلاً، ولتفعلوا بفخر الدين مثلما تفعلون بهم». .

قال ذلك، ثم أمر بأن يحمل على محفته إلى الشارع، ليهدئ من روع المفزعين من الناس، وليرد إليهم ثقتهم بأنفسهم، و يعيد إليهم إيمانهم بقادتهم وربهم والنصر الذى وعد به المتقين المثابرين.

وحينما رجع إلى القصر صاح بكاتبه بهاء الدين زهير، وقال له: اكتب إلى لويس:

- «وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك، وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا فرد إلا جددناه، ولا بغى علينا باغٍ إلا دمرناه فلو رأت عيناك -أيها المغرور- حد سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منك الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، فكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولابد أن تزل بك القدم، فى يوم أوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، فإذا قرأت كتابى هذا فكن فيه على أول سورة النحل ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وكن فيه على آخر سورة ص ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨] ونعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وإلى قول الحكماء: «إن الباغى له مصرع»، وبغيك أيها الملك مصرعك وإلى البلاء تقلبك، والسلام..».

وصمت الملك الصالح بعض الوقت حتى هدأت ثورة الانفعال الذى سيطر عليه، ثم قال:

- قد يظن لويس، أنه باحتلاله دمياط قد فتح ثغرة لا تسد، ليعلم ذلك المغرور أن هذه الثغرة ما هى إلا فم الوحش الذى سوف يطبق فكيه فجأة فيسحقه هو ومن معه.

وحينما علمت شجرة الدر بأن القائد فخر الدين سوف يكون ضمن الذين أصدر الملك أمره بقتلهم، ارتجفت أوصالها وانفرطت الدموع من عينيها، ولم تتمالك نفسها أن أسرعت إلى زوجها الملك ترجوه وتلح فى الرجاء أن يصفح عنه، ويدخره للمعارك القادمة الحاسمة، وبذلت شجرة الدر فى هذا السبيل كل ما أوتيت من دهاء وحنكة، ولم تكف عن الرجاء والتوسل إلا بعد أن عفا عنه زوجها ولكن ذلك كان على مضض.

واستراحت شجرة الدر إلى نجاحها فى مسعاها، وحمدت الله من أعماق قلبها أن كتبت الحياة من جديد لفخر الدين، وخاصة عندما تراصت على طول الطريق فى الأيام التالية رءوس زعماء بنى كنانة الذين فروا أمام الغزاة.

غير أن شجرة الدر كانت تتساءل بينها وبين نفسها فى دهشة:

- ترى ما السر الذى يكمن وراء انسحاب فخر الدين وهو الرجل الشجاع الذى لا يعرف الجبن إلى قلبه سبيلاً؟

●●●

الفصل السادس

لقد كان من المنتظر أن تقاوم دمياط مدة طويلة ؛ لأن ما فيها من الاستعدادات والاستحكامات كفيل بأن يوقف زحف المغيرين ولهذا كان الملك الصالح وشجرة الدر وكل الناس فى عجب مما حدث .

وحينما التقت شجرة الدر بالقائد فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، رفعت إليه عينين فيهما تساؤل ولوم ، ولاذ فخر الدين بالصمت ، كان أسفه أكبر من أن يعبر عنه ، وكان خجله يجعله فى حيرة من أمره لا يدرى كيف يبدأ الحديث ، وهل سوف ينسى طول حياته أنه فر من المعركة مهما كانت الأسباب والذرائع ؟ والأدهى من ذلك أن شجرة الدر قد أنقذته من براثن الموت وتوسلت إلى زوجها أن يبقى على حياته ؛ فأصبح مدينًا لتلك المرأة بحياته وشعر بالتضاؤل أمام شجرة الدر ، وأخذ يبرر لها موقفه قائلاً :

- لم يكن رجالنا فى دمياط يتصورون أن الفرنجة سوف يقدمون فى هذا العدد الوفير من الجنود ، وما كاد الأعداء ينزلون قبالتنا على

الشاطئ الشمالى ونحن على الضفة الغربية لفرع النيل، حتى تأهينا لصدهم مقنعين أنفسنا أن كثرة الأعداء شيء يجب ألا نفكر فيه، فما كان الانتصار يومًا رهينًا بالكثرة العددية وحدها.

فقالت شجرة الدر:

- حسنًا.. ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

- غير أنى رأيت الانسحاب إلى الضفة الشرقية لفرع النيل أمام المدينة مباشرة أجدى علينا من البقاء على الضفة الغربية، وبهذه الطريقة يا مولاتى نستطيع أن نتصيد الغزاة ونغرقهم فى النيل كلما حاولوا العبور إلينا، وفى الوقت نفسه تحمى دمياط وقلاعها ورجالها ظهورنا من الخلف.

- خطة بارعة من غير شك.. وعملية أيضًا.

- هذا ما قدرته فى بداية الأمر، وفوجئنا بالعدو يحيط بنا من كل جانب فى سرعة مذهلة، كيف حدث ذلك؟ كيف تَأَتَّى له أن يعبر فرع النيل بهذه السرعة؟ هل فى الأمر خيانة؟ وتلاطمت الأسئلة الكثيرة فى رأسى، وأخذت من كل جانب، لكننى تذكرت بعد فوات الأوان، أننا أثناء انسحابنا من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية قد نسينا أن نرفع الجسر الذى عبرناه، ومن ثم استغل الفرنجة الفرصة ومروا من فوقه سريعًا، فى الوقت الذى كنا ننتظر لنرى جموعهم وهى تخوض النيل أو تحاول إنشاء الجسور عليه فنتصيدهم ببساطة.

وقالت شجرة الدر فى أسف :

- ثم ماذا يا فخر الدين؟

- كان هذا كفيلا بأن يثير الاضطراب فى نفوسنا ، وأن يوقفنا أمام جيوش العدو الجرارة موقفًا لا نحسد عليه ، غير أن الذى زاد الطين بلة هو ذلك النبأ المختلق من أساسه .

- ماذا تعنى؟

- لقد سرت شائعة قوية يا مليكتى تفيد أن مولانا الملك الصالح قد مات فجأة ، وأن رؤساء المماليك الطامعين فى العرش قد تسابقوا إلى القصر ، كل منهم يريد أن يظفر بالأريكة العالية - بحكم مصر - ولهذا . .

- ولهذا انسحبت يا فخر الدين . .

- أبدًا يا مولاتى . . لقد ذعر الناس والجنود والتبس الأمر عليهم ، وهاموا على وجوههم فى الطرقات نساء وشيوخًا وأطفالاً ، وتبعهم على الأثر بنو كنانة ، وكنت بين أن أبقى فى مكانى أنازل العدو وحدى غير عالم بالأحداث الكبار التى تتدافع فى القصر الملوكى ، أو أعود إلى أشموم طناح لأرقب التطورات ، وأعيد تنظيم الصفوف على ضوء هذه الأحداث الجديدة ، وكنت واثقًا من أن الغزاة- حتى لو استطاعوا التقدم- فسوف يكون ذلك فى مصلحتنا لحد ما ؛ لأن إيغالهم فى أرضنا سوف يحيطهم برجالنا

من كل صوب، ويجعلهم فريسة سهلة. . ثم لا تنسى يا مولاتى أنى أرسلت بعض الرسائل إلى السلطان فلم يأتنى رد، مما زاد شكوكى وهواجسى. .

●●●

- أكان هذا كل ما فى الأمر؟

- كلا. .

هناك شيء آخر أبى أن يعترف به فخر الدين لشجرة الدر، ولم يكن فى مقدوره سوى أن يخفى ما بقلبه، وأن يحاول جاهدًا أن يصرف نفسه عنه على الرغم منه، وأن يتحمل هو تبعة كتمانه الطويل. . ترى ماذا تقول شجرة الدر عندما تعلم أن فخر الدين قد وقع فى غرامها منذ زمن بعيد، وأنه يقضى الليالى الطوال لا يفكر إلا فيها، ولا يحلم إلا بطلعتها المؤنقة، وحديثها العذب الساحر، وعينيها اللتين تلمعان فى ذكاء متوقد وفتنة آسرة؟

أيجد فى نفسه القدرة على الاعتراف بحبه لزوجة السلطان نجم الدين أيوب الذى ما زال على قيد الحياة ممسكًا بالصولجان لابسًا التاج؟

أيقول لها: «لقد تراجعت يا مليكتى إلى أشموم، وتركت دمياط ورائى عندما علمت بالخطر المحدق بك. . أعنى عندما خفت أن يستولى على قلبك رجل غيرى بعد موت الملك الذى

أشاعوا عنه، وأنى جئت يا مولاتى لأحمى العرش. . وأبعد عنك الأخطار. . وأستنقذك لنفسى التى تتعذب منذ سنين»؟ أكان فى الإمكان أن يقول لها ذلك، وهو لا يدرى حقيقة شعورها نحوه؟

وماذا يكون الموقف إذا سخرت منه، وقالت له: «لا يشرفنى أيها القائد العظيم أن تتنكر لواجبك وتبيع مجدك ومجد بلادك من أجل امرأة حتى ولو كانت هذه المرأة أنا». ماذا يقول فخر الدين إذا قالت له ذلك؟

وشعر فخر الدين بما يشبه السهام يمرق فى صدره ويعذب ضميره، وأدرك لأول وهلة أن حبه لهذه المرأة قد ترك أثراً عميقًا فى حياته، وجعله يقدم على بعض التصرفات التى لا ترتاح لها نفسه تمامًا، ولا يقرها خلقه وضميره، وبات واضحًا أنه كثيراً ما يترك العنان فى أيامه الأخيرة لعواطفه كى تتسلم زمامه، وتملى عليه إرادتها، بينما كان سابق أيامه ينزل على منطق العقل، وبهذا ذاعت شهرته وحقق النصر فيما خاض من معارك وكتب لنفسه مجداً.

أحس فخر الدين بذلك كله، وأدهشه ذلك الانقلاب الذى شمله، لكنه قال لنفسه فى نهاية الأمر:

- لقد تراجعت، لأنه لو وقع العرش فى يد الطامعين بعد موت الملك لخسرنا كل شىء. . لقد هزمت دمياط، لكن بقيت مصر وبقى العرش بعيداً عن كيد الكائدين.

وخجل أن يكمل حديثه قائلاً: «. . وبقيت شجرة الدر».

●●●

وعول فخر الدين على أن يفعل شيئًا. . أن يثبت لأعدائه الشامتين، وأصدقائه المحزونين أنه ليس بالجبان الرعديد، ولا بالقائد الذى يخاف الفرنجة، وأن الأمر أعمق من أن يكون مدينة يخليها الجنود أمام الأعداء.



الفصل السابع

أصبحت المنصورة قبلة الأنظار بالنسبة للجيشين المتحاربين، فالمصريون يتقاطرون إليها من كل ناحية، العربان والفلاحون، وعلى الشاطئ الغربى للنيل كان يعسكر أولاد الناصر أمير الكرك ومعه عدد من الجنود العرب الذين جاءوا لمؤازرة إخوانهم المصريين، والمماليك يفدون مسرعين وتتلاحق مواكبهم فى حماس منقطع النظير، وإصرار عنيد على إيقاف زحف الفرنجة وردهم مدحورين، ولم يكن ذلك بالهين اليسير بعد أن احتلت دمياط وأخذ العدو فى تحصينها، وإقامة مراكز قوية من حولها لتصد المصريين إذا ما فكروا فى استردادها، ولا شك أن احتلال دمياط قد مد حبل الأمل للفرنجة، والنصر بالنصر يغرى، وحلاوة الشىء تدفع إلى الاستزادة منه والإقبال عليه.

فلم يكن أمر الأعداء إذن بالأمر الذى لا يؤبه له، وخاصة أن آمالهم فيما وراء حدود مصر، حيث بيت المقدس، وبلاد الشرق الجميلة الغنية الدافئة . . .

●●●

نعود إلى عدنان بن المنذر بعد أن غادر قاهرة المعز تاركًا أمه هناك فى صحبة خادمة عجوز، ممتطيًا جواده، قاصدًا المنصورة، وكانت المنصورة فى ذلك الوقت مدينة جميلة فيها الأسواق الرائجة والحمامات الرائعة، والمنتديات الغاصة بالرواد، والمساجد الشامخة والأبنية الباذخة التى تدل على الثراء والتحضر، وقد كان فى نية عدنان أن ينزل على صديقه «عبد الأعلى بن سلمان» ضيفًا لبضعة أيام، وعبد الأعلى من أشهر تجار المنصورة، وكثيراً ما كانت يفد على القاهرة فى قضاء بعض المهام وعقد الصفقات هناك، فيحمل فى بيت عدنان، والحقيقة أن عدنان كان فى شوق جارف إلى رؤية صديقه الذى انقطعت عنه أخباره منذ عام- أى فى المدة التى قضاها رهين السجن- والإنسان الذى فى مثل حالة عدنان، وبعد هذا الشقاء والاعتقال، يحس أنه فى مسيس الحاجة إلى صديق يأنس إليه، وينفض فى مجلسه الآلام التى تثقل على فؤاده، وترهق روحه، وطوال الطريق من القاهرة إلى المنصورة كان عدنان ينطلق بجواده مسرعًا دون أن يعى تمامًا ما حوله، كان غارقًا فى التفكير، نهبًا للهواجس الكثيرة التى تتخذ عقلهِ مسرحًا لها، لقد مل التفكير فى توران شاه وسخط على الإدمان فى الشرود والذهول والأخذ بالثأر، ولم يعد يرهب شيئًا، حتى رجال السلطة لو فُرض واكتشفوا أمره وعرفوا أنه هارب من السجن، غير مكترث للسلطان، فلن يكون ذلك فى نفسه أثر يذكر، لقد سئم العيش فى السرداب السرى المظلم الذى يتلوى تحت أرض بيتهم كما تتلوى

الأفعى، فلينطلق. . وليحيا. . وليعوِّد نفسه منذ اليوم على أخذ الأمور ببساطة، وليدع المقادير تجرى فى أعنتها، فإن أغدقت عليه ما يريد فبها ونعمت. . وإن حرمته مبتغاه كما دأبت على ذلك من قبل، فليمض فى طريقه غير عابئ بشيء، فمن الظلم البين، أن يشقى باليتم حينًا، ثم يتلظى بآلام الحب أحيانًا أخرى، ويتعرض لأهوال السجن والعذاب فى الوقت نفسه. . لِمَ كل هذا؟

وأفاق عدنان من خواطره المتلاطمة، ومد بصره فيما حوله. ماذا رأى؟؟

الغبار المثار ينتشر فى الأفق، والناس يتدافعون كالسيل الجارف الذى لا يوقفه سد، ولا يمنعه من التدفق مانع، إنها إرادة شعب، يأنف العبودية، ولا يسلم للفرنجة الغاصبين بما يريدون، شعب يعتز بفضيلة الكرم والصبر إلى حد الإغراق والتطرف، لكنه عندما يعلن كلمته، ويملى إرادته، وتذوب أمامه كل العوائق، وتتحطم كل العقبات. . وأخذ عدنان يتلفت يمنة ويسرة، باحثًا عن القيادة التى تقود هذه الجماهير التى وفدت من أقاصى البلاد المصرية ومن مدن الشام والحجاز والمغرب وغيرها، فلم يجد غير كتل بشرية لا ينحسر مدها، ولم يجد ملكًا على رأسه تاج، أو قائدًا فى يده صولجان، وغمغم عدنان وقد أخذته روعة المنظر، وأهاجت فى روحه حمية عربية صميمة صحيحة:

- هذه هى القيادة التى سأنضوى تحت لوائها. . هؤلاء العامة البسطاء هم كل شيء. . هم القادة والجنود. . وأياديهم العجفاء

الخشنة هى التى تصنع المجد، وتخلق التاريخ المجيد. . و. . وتؤدب المارقين. . .

ثم وكز جواده، وانطلق لينضم إلى كتلهم الزاحفة، التى يحركها إيمان وحب ورغبة أكيدة فى الحفاظ على العرض والشرف وحق الحياة، لم يتقزز من ملابسهم المهلهلة، ولحاهم الكثة، وأقدامهم الحافية المتشققة التى تطأ الشوك والحصى السخن بلا مبالاة، ولم يحتقر أسحلتهم الصدئة، غير المهذبة؛ لأنه كان مؤمنًا أن النصر تصنعه الإرادة الصارمة والإيمان الصافى الواضح، وما هذه الأسلحة- برغم أهميتها وضرورتها البالغة- سوى أداة، فما السلاح وحدة هو الذى يضرب ويدفع، ولكن خلف السلاح يد تضرب، وقلب يدفع وينبض بالطاقات الجبارة الهائلة.

وانتشى قلب عدنان بسعادة ضافية، وهو يجد نفسه بين هذه الحشود التى تمضى وكأنها تفكر بعقل واحد وتسير فى خطوات مرتبطة متفقة الوجهة، وبرغم أنه يحب الهدوء وينقم على الضجيج والضوضاء إلا إنه أحس بصيحات التكبير والتهليل التى تصدر عنهم وكأنها ألحان عذبة شجية تأسر السمع، وتسحر الفؤاد.

وتساءل عدنان بينه وبين نفسه: ترى ماذا تكون مشاعر الإنسان وهو يجاهد جنبًا لجنب مع هؤلاء الناس فى أتون المعركة؟ أيخاف الموت أو يرهب الأعداء؟ أيفكر فى موت أو حياة؟ تراوده خواطر الثأر من إنسان تافه مثل توران شاه؟ إن الإنسان إزاء هذا الموكب

المقدس لينسى ذاته ويتجاهل كل مطامعه الشخصية الأنانية التى لا تثور إلا فى فترة من فترات الضعف، وفى أوقات الفراغ واللهو التى لا نجد ما نملؤها به سوى الأحقاد الصغيرة، ما أعذب الموت وسط هؤلاء الشرفاء المؤمنين!!

ولاحت المنصورة من بعيد فى أحضان الشمس الوهّاجة، والنيل يحف بها وكأنه ذراع قوية سمراء تحنيها من بطش المعتدين، وظهرت مآذنها ومبانيها ثابتة شامخة وكأنها تسخر من الحمقى الذين أرادوا أن ينتزعوها من أهلها ظلمًا وعدوانًا..

لحظات شاعرية حلوة عاشها عدنان بن المنذر وهو يمضى فى طريقه قاصداً المنصورة، متلهفًا على لقاء صديقه عبد الأعلى بن سلمان كما كان يتلهف على لقاء العدو فى معركة صاخبة لعله يستطيع أن يقتل فى أتونها أشباح الماضى، وذكريات الآلام التى ما فتئت تراوده من آن لآخر.

ولم يكن عدنان يعلم شيئًا عن احتلال العدو لدمياط؛ لأن ذلك جرى فى سرعة مذهلة لم يكن يتوقعها أحد، ولم تكن أنباؤها قد بلغت القاهرة بعد، ورغم أن هذا الحدث قد صدم عواطف عدنان، وشاب أحلامه بشىء من الحزن والأسى، إلا أنه لم يفت من عزمه ولم يزعزع من إيمانه بالنصر، مهما كانت المعركة قاسية، ومهما تطلبت من عرق وكفاح ودماء؛ لأن الوقت لم يزل مبكرًا، والمعركة ما برحت فى بدايتها.

وأمام بيت عبد الأعلى ترجل عدنان عن فرسه، ثم نفض عن ملابسه غبار السفر، وطرق الباب، وبين العناق الحار، والقبلات الأخوية الصادقة، اختفت عبارات الشوق، وتحيات اللقاء، وقصد الصديقان إلى الداخل . .

ومرت ساعة أو بعض ساعة، ثم قال عبد الأعلى :

- كيف حالك أيها الصديق العزيز؟

- حمداً لله، الذى لا يحمد على مكروه سواه . .

- وكيف حال زمردة معك؟

فانتفض عدنان انتفاضة مفاجئة، وخيِّل إليه أن طعنة مسمومة قد مرقت فى صدره، وأصابت كبرياءه، فاربدّ وجهه، وتجهمت ملامحه، ثم أغرق فى صمت رهيب، فقال عبد الأعلى :

- ما بك؟

- لا شىء.

- أتحس ببعض التعب؟

- ربما، لكن ليس إلى درجة كبيرة، أرجو ألا تفتح الحديث مرة ثانية بشأن زمردة؛ لأنى أحاول أن أنسى هذا الموضوع كلية.

- أمرك عجيب . .

- لا عجيب فى ذلك يا عبد الأعلى ، فأنت تعلم أن الطاغية توران شاه قد اختطفها ثم قذف بى إلى السجن عامًا كاملاً.

- أعلم ذلك يا عدنان.

- فما سر تساؤلك إذن؟ أهى السخرية من أخيك الذى أضناه العسف والطغيان؟

حاشا لله أن أقصد ذلك وإنما حسبت أن زمردة قد عادت إليك!!

-عادت إلىّ؟ . . كيف تقول هذا الكلام؟ أوَ تظن أن الوحش يترك الفريسة وقد أطبق فكيه عليها؟ قد يتركها فعلاً، لكن بعد أن يأتى عليها، فلا يلفظها إلا جلدًا وعظامًا لا حياة فيها ولا روح.

فأطرق عبد الأعلى هنيهة ثم قال:

- لقد ذهبت إلى الشام فى رحلتى الأخير وقضيت هناك بضعة أشهر، ومررت بحصن كيفا، فعلمت أنها هربت وبذل توران شاه مجهودات كبيرة للإمساك بها مرة ثانية، لكنه لم يعثر لها على أثر، فأثار ذلك حنقه، وأقسم أن يقتلها إذا ما وجدها، وأن. . أقصد. . يقتلك أنت الآخر. . ولهذا السبب رجحت أنها قد تكون أتت إليك بعد فرارها.

كانت الأنباء التى يلقيها عبد الأعلى من الخطورة بمكان، ولم يكن عدنان يتوقع أن يسمع مثلها؛ لأنه أرغم نفسه على قبول الواقع المرير بعد أن تأكد له أن زمردة لم تعد له، وخاصة أن أيدى الشيطان- توران شاه- عبثت بها لا شك فى ذلك، ولم يكن يتوقع أن تقدم زمردة الهادئة الوادعة على خوض المغامرات، والضرب فى بلاد لا تعرف فيها أهلاً، ولا تملك فيها دينارًا واحدًا. . .

وغمغم عدنان ليفكر من جديد فى أمر زمردة، وخفق قلبه خفقات عذبة كان يشعر إزاءها بالسعادة، لكن هذه الخفقات كانت قد اختفت تمامًا منذ زمن ليس بالقريب وحلت محلها خفقات الحقد والثورة والانتقام من توران شاه. .

وفى لحظات خيِّل إليه أن قلبه أخذ يحيا من جديد. .

وعادت إلى ذهنه على التو تلك الذكريات الحلوة النابضة. . ذكريات الحب والآمال والنعيم. .

لكن أين اختفت زمردة؟

إنها ليست فى القاهرة ولا فى كيفا، فإلى أين قادتها قدماها وألقت عصا الترحال؟؟ أسئلة مؤرقة لم يستطع عدنان أن يبعدها عن ذهنه رغم أنه مقبل على معركة تحتاج منه إلى التركيز التام والانصراف عن كل ما عداها. .

وعاد عدنان ينظر إلى صديقه عبد الأعلى فى حيرة، كان عبد الأعلى شابًا قصير القامة، ممتلئ الجسم، فى عينيه بريق وذكاء وثقة، وكان عدنان يحس أنه يستمد من صديقه الوفى ما افتقده من راحة بال وهدوء ضمير، ولم يشأ عدنان أن يزيد فى بلابل صديقه ومن ثم أطرق هو الآخر صامتًا. .

●●●

الفصل الثامن

كان الليل هادئًا ساكنًا والقمر يتألق فى سماء دمياط فيلقى عليها وشاحًا فضيًا ساحرًا، ومع ذلك فقد كان «مارسيل» يحس بملل قاتل يجثم على قلبه، وأخذ ينقل خطاه فى بطء وتراخٍ حتى يصل إلى نهاية المنطقة المكلف بحراستها، ثم يعود أدراجه مرة ثانية، وهكذا يظل يروح ويجىء، متحركًا كالآلة، محاولاً أن يذود النوم عن أجفانه؛ لأنه لو أغفى دقيقة واحدة فسيكون معنى ذلك أن يتسرب أحد أولئك المصريين أو العربان، فيقضى على حياته أو ينتزعه أسيرًا أو يسرق شيئًا من مخازن الذخيرة أو الطعام التى يحرسها.

والحقيقة أن حركات الفدائيين المصريين قد ازدادت إلى حد مزعج بعد احتلال دمياط، فلا تكاد تمر ليلة إلا ويحدث حادث يثير الفزع فى معسكر الفرنجة، ويجعل كل لحظة من لحظاتهم محفوفة بالمخاطر مشوبة بالقلق والرهبة.

وامتد الليل بمارسيل وطال صمته، ودفعه هذا الصمت لأن يفكر فى الماضى، يفكر فى باريس الجميلة حيث الأهل..

واللهو . . والخمر والنساء، ترى أى شيطان ذلك الذى دفعه لأن يترك باريس ويأتى إلى هنا؟ أحقيقة جاء بفتح الطريق أمام جنود الصليب ويقيم على أنقاض المساجد كنائس تدق فيها الأجراس وتضاء الشموع؟ . . كلا . . إن مارسيل يعترف بينه وبين نفسه أن أمر الدين لا يهمه فى قليل أو كثير، بل إن بعض أصدقائه فى باريس يتهمونه بالإلحاد والهرطقة . . إن مارسيل استطاع أن يخدع الكثيرين ويخدع البابا ولويس . . وغيرهما، لكن من الصعب على الإنسان أن يخدع نفسه، خداع الآخرين أمر ميسور أما خداع النفس ففى حكم المستحيل، وغمغم مارسيل فى حنق: «طالما حلمت بالشرق ولياليه الساحرة وكئوسه المترعة، فدفعنى الغرور . . وحلمت بأن آتى إلى هنا وأظهر من ضروب الجسارة والبطولة ما يؤهلنى لأن أحصل على إمارة . . أو مقاطعة . . وأعيش فيها كملك صغير . . وأنعم بالمال والنساء والخمر . . كنت أحسبها رحلة سهلة ميسورة وسرعان ما أصبح بعدها صاحب جلالة، والآن ماذا فى يدى؟؟ لا شىء سوى سيف ثقيل وكف مكدود وشعب لا يسلم لنا بسهولة، بل يحرمنا حتى لذة النوم ويحطم على رءوسنا الكئوس التى كنا نحلم بملئها . . ماذا يا إلهى؟ فلا باريس بقيت فيها، ولا إقطاعية حصلت عليها، ما زلت مارسيل الجندى المجهول الذى يحاول أن يغرق أساه فى الصخب والضحك . . »، وأفاق مارسيل من هواجسه على صوت أحد الجنود:

- طاب مساؤك يا مارسيل.

- طاب مساؤك أيها الأخ.

- لقد حانت نوبتى فى الحراسة، ولك أن تمضى إلى خيمتك كى تستريح.

فقال مارسيل ساخراً:

- أستريح؟؟ إنك تهزأ بى.. من يدرى؟ قد تمتد إلى عنقى يد قابضة على خنجر فتجعلنى أستريح إلى الأبد، إن هؤلاء المجهولين الذين يدهموننا من آن لآخر قد قلبوا حياتنا إلى جحيم..

- أوَكنت تحسب مهمتنا سهلة؟

- كنت واهمًا.

- لكن ثق يا مارسيل أن الرب يحمينا.

فقال مارسيل حانقًا:

- ولِمَ لم يحمنا بالأمس؟. وقبل الأمس. باءت كل حملاتنا السابقة طوال مائتى عام بالفشل الذريع.

فقال الجندى فى دهشة:

- ويحك يا مارسيل؟ لقد عدت إلى هرطقتك وإلحادك.

- كلا.. بل أنتم المخدعون، أتعتقد أننا نحارب من أجل الرب حقًا؟

- فلماذا نحارب إذن؟؟

- من أجل مطامع وأمجاد زائفة، تسعة أعشار الجنود لا يتحدثون إلا عن حياة النعيم فى الأرض الخضراء التى سوف نفتحها، أنسيت أننا استطعنا فى القرن الماضى أن نقيم مملكات منفصلة فى الشام؟ ماذا كانت النتيجة يا عزيزى؟؟ تقاتل وتناحر بين الملوك المسيحيين فى الشام كما نتقاتل الآن من أجل الغنائم التى حصلنا عليها بعد استسلام دمياط، وتسابق من أجل المطامع، حتى طردنا المسلمون وانحسر ظل ممالكنا هناك.

فقال الجندى فى أسف:

- أنت متعب يا مارسيل.

- كذبت.. هل قال المسيح احملوا سيوفكم وانتشروا فى الأرض لتقتلوا وتتسابقوا إلى المطامع، أو قال: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر؟.

وسادت فترة صمت، قال الجندى بعدها:

- ولم أتيت معنا إذن.

- كنت مخدوعًا أو مغرورًا، وهأنذا أدفع ثمن ذلك، هناك نقطة حاسمة فى حياة كل فرد منا، يصدم عندها بالواقع وعندئذ ينكشف له وجه الحقيقة.

- ما هى الحقيقة فى نظرك.

- الحقيقة . . هى . . أنها شىء مزيف يصنعه المغرضون .

- أكاد لا أفهمك .

- إذن خذها صريحة . . الحقيقة الوحيدة التى أفهمها الآن هى أننا واهمون .

وفى هذه اللحظة ، سمع الزميلان صوت ارتطام شىء ثقيل بالأرض فسادهما الارتباك ، ووقفا جامدين كتمثالين من الخوف .

وقال مارسيل :

- ماذا هناك؟

- لا أدرى .

- أخاف أن تكون حركة تسلل من العربان .

- يبدو أن الأمر ليس كذلك .

وأخذ الجنديان ينقلان خطاهما فى حذر وهدوء ، وبالقرب من السياج الحجرى المقام حول المخازن ، لمحا شيئًا متكورًا أسود فى ضوء القمر ، وما إن اقتربا منه حتى صدرت عنه أنات خافتة ، فأقدم الجنديان وقد امتشقا سيفيهما ، وحينما انحنيا على ذلك الشىء قال مارسيل :

- امرأة .

وجذبها الجندى الآخر فى غلظة جعلتها تتأوه من الألم ، بينما قال مارسيل بلهجة جافة مصطنعة :

- ما الذى أتى بك إلى هنا يا فتاة؟؟

فقالت وقد غص حلقها بالبكاء . .

- الجوع يا سيدى .

قال الجندى الثانى ساخراً . .

- الجوع أم شىء آخر؟؟ ألهذا الحد يدفعك الجوع إلى ارتكاب الحماقات القاتلة والتسلل إلى معسكر الجيش؟؟ حسنًا . .

ورفع الجندى سيفه ليهوى به عليها، وهو يقول :

- تستطيعين أن تتناولى وجبة دسمة فى الجحيم .

غير أن مارسيل أمسك بيده فى اللحظة الأخيرة، وقال :

- هل جننت؟؟ وماذا يجديك قتل امرأة؟

- إنها من الأعداء .

- لو كانت تقصد شراً، لأقدمت على قتل واحد منا، ولحملت معها سلاحًا، لكنها قصدت لتوها مخازن الطعام، إنها جائعة أيها الصديق، والرب أوصى بأن نعطف على المساكين، وكفانا ما قتلنا من النساء والرجال فى الأيام السابقة . . انظر يا عزيزى إنها جميلة سمراء وفاتنة . . فيها دفء وحنان لقلوبنا المكلومة الباردة . . من أنت يا فتاتى . . ؟

فقالت فى صوت واهن :

- غجرية من الشمال يا سيدى . . لم أكن أعرف أحداً فى هذه الديار . . لقد ضاقت بى السبل، والناس كلهم لا يفكرون إلا فى الحرب هنا وهناك . . لكنى يجب أن آكل أن أعيش حتى أرحل عن هذه البلاد، فدفعنى حب الحياة للتضحية بالحياة . . جئت لأسرق . . لأنى أريد الطعام . .

ورفعت إليه وجهها الأسمر الفاتن، وبانت فى عينيها الدموع وبدت فى ضوء القمر كأحسن ما تكون فتنة وسحراً، وسرعان ما التفت مارسيل إلى رفيقه قائلاً :

- إنى آمرك أن تنصرف إلى نوبة حراستك؛ بصفتى أعلى رتبة منك . .

فبقى الجندى جامداً فى مكانه لحظة، ثم قال :

- حسنًا . . قد يجر ذلك عليك المتاعب .

- ليكن . . إن صاحب الجلالة الملك لويس، لا يريد أن يغادر دمياط أو يواصل الزحف لأن الملكة الشابة ما زالت متعبة، ولأن بقية الجنود لم يصلوا إلى الشاطئ بعد، وهذه الغجرية السمراء هى مليكتى منذ الآن . . فلأجرب أن أكون ملكًا ولو فى الوهم .

- هذا كلام تحاكم عليه يا مارسيل .

غير أنه لم يلتفت إليه بل وجّه الحديث إلى الغجرية قائلاً :

- هيا يا مليكتى . . إنك لا شك متعبة .

- إنى جائعة . .

- ستجدين كل شىء معدًا فى خيمتى . .

- كلا . . كلا . . دعنى أمت . .

- حسنًا . . يستحسن أن تموتى فى خيمتى . . وبين ذراعى . . ها . . ها . . ها . .

قال ذلك ثم رفعها بين ذراعيه، وهى تسب وتلعن وتقوم دون جدوى، وحينما رفعها عن الأرض سقطت من يدها طبلة قد تهشمت فوهتها الفخارية الضيقة، وعندما رآها مارسيل سحبها بيده، وهو يقول:

- غجرية ترقص وتغنى . . هذا شىء جميل . . أما أنت أيها الصديق فلتذهب إلى الجحيم . .



الفصل التاسع

جلس مارسيل فى خيمته ورغم القلق والإجهاد الذى بدا على وجهه الأحمر ذى الملامح الباردة وعينيه المحتقنتين، فقد أخذ يرمق الغجرية السمراء فى ضوء شمعة باهتة الضوء. . كانت تتناول الطعام بكلتا يديها فى نهم بالغ وتزدرده فى سرعة فائقة، دون أن تلتفت إلى مارسيل أو ترد على تعليقاته الكثيرة، ثم تناولت «سطلاً» من الماء، وأخذت تعب منه عباً حتى تسرب الماء من زاويتى فمها ويلل ثيابها.

وكانت نظراته إليها مزيجًا من الشفقة والإعجاب، وأخذ يمعن النظر فى أهدابها السمراء الطويلة، وعينيها الواسعتين، وبشرتها البضة التى لوحتها أشعة الشمس، وشفتيها الممتلئتين، وثيابها السمراء، وحبات الخرز والودع التى تتدلى عقودها حتى خصرها، ثم غمغم:

لكأنى فى ليلة من ليالى شهرزاد. . لو لم أفز من الحرب بغير هذه الغجرية السمراء كغنيمة لكفانى ذلك، وعدت إلى باريس عود الظافرين، فليفكر الملك وقواده فى الوصول إلى قاهرة المعز قلب الشرق، أما أنا فلا أفكر إلا فى الوصول إلى قلب هذه الغجرية.

وأخذ يفكر فى هذه الليلة الجميلة التى قذفت بهذه الهدية الرائعة فى طريقه، لقد كاد الملل يقتله، وأوشك الفراغ الطويل، وهذه الغربة القاسية، وهذه الحرب التى لا معنى لها، أوشك كل ذلك أن يورثه الجنون، أو يدفعه إلى الانتحار؛ لأنه لم يعد يؤمن بجدوى أى شىء يفعله، ليته يستطيع أن يجمع الجنود والقواد والقساوسة فى صعيد واحد ثم يشعل فيهم النار ويضع حداً لهذه التفاهات والخرافات الضالة، أليس عجيبًا أن يهب ملك من فراش مرضه- الملك لويس- ويعلن على الناس أن هاتفًا صرخ به أن اخرج إلى بيت المقدس، وطهِّر الشرق من مخالفى الكنيسة، ثم تكون النتيجة أن يكون لهذا الهذيان أثره البعيد، فتتوالى خطب البابا، وتجتمع كلمة الملوك على إيفاد حملة صليبية سابعة إلى الشرق؟.. يا للغرابة، ملك مصاب بالهوس الدينى، يتبعه الألوف المؤلفة، وفى قرارة نفس كل منهم هدف آخر، ومطمع غريب، ثم ها هو الملك القديس، يوقف الزحف لأن زوجته الشابة متعبة..

- لقد شبعت.

قالتها الغجرية دون أن تلتفت إليه، ثم أخذت أنفاسها تتلاحق من أثر المجهود الذى بذلته فى الإسراع بتناول الطعام وكأنها كانت فى سباق عنيف، وتمطى مارسيل، وبرقت فى عينيه رغبة، وتوالت ضربات قلبه، وأحس بالدماء الساخنة تتصاعد فى رأسه، وتلهب جسده فقصد إلى ركن من أركان الخيمة ليحضر شيئًا ما، وكان يقول:

- أتجيدين الرقص يا فتاة؟

- رقصاتى مثل ألسنة اللهب.

- ويحك! والغناء؟

- نبرات مثل أنسام الربيع.

لكنها قد تنقلب رعداً قاصفًا، ونظرت الغجرية إليه، فوجدت فى يده كأسًا مملوءة بالخمر، وفى لمح البصر امتدت يدها وأطاحت بالكأس، فوقعت مهمشة على الأرض، وسالت الخمر على التراب، وقبل أن ينطق قالت:

- هنا يسكر الشرقيون بلا خمر.

- ونحن فى الغرب نسكر بخمرين.. أنت والكأس.

وطرب مارسيل لهذه المداعبة اللطيفة رغم أنها أضاعت كأس الخمر الوحيدة التى يمتلكها فى خيمته، وكان سروره مضاعفًا؛ لأنه حتى هذه اللحظة كان مشفقًا من الاقتراب منها، حاسبًا ألف حساب لشراستها وعنفها، فوقف إزاءها عاجزًا مقهوراً وهو الذى لم يكن يعبأ بشىء فى باريس، ولا يخاف أية امرأة، ولهذا لجأ إلى الخمر لعلها تمسح شيئًا من خوفه وتجعله يجرؤ على الاقتراب منها.

ووقف مارسيل إزاءها مسروراً، ووجهه ينطق بالسعادة ثم قال:

- لا بأس.. أستطيع أن أذهب إلى المخزن وأحضر زجاجة خمر كاملة كنت قد أخفيتها للطوارئ، إن القساوسة هنا يلوموننا من أجل الخمر صباحًا، لكنهم يشربونها سراً فى المساء.

فقالت الغجرية فى مرح غير متكلف :

- أسرع أيها الجندى . . الليل أوشك أن ينتهى ولا بد أن أعود . .

- تعودين؟؟

- طبعًا . . أنت لا تفهم شيئًا من قوانين الغجر . .

- حسنًا . . لنفكر فى ذلك بعد . . سأحضر الزجاجة أولاً .

قال ذلك، ثم تسلل خارجًا ناحية المخزن . .

وبعد دقائق عاد ليجد الخيمة خاوية . .

كانت الشمعة المتهافتة الضوء هى الحقيقة الوحيدة الباقية . . وكان لهيبها يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكن اهتزاز اللهب كان يشبه لسانًا يتحرك فى سخرية مرة . .

ووقف مارسيل مذهولاً برهة . .

ثم صرخ فى غضب، وأخذ يجرى هنا وهناك ناحية الشاطئ باحثًا عن الغجرية دون جدوى، وعلى الشاطئ الآخر من النهر لمح شبحًا ينطلق بعيدًا . . وعاود الصراخ من جديد فلم يرجع إليه غير صدى صوته الجريح . .

وعند عودته إلى خيمته مهزومًا كسير القلب، اصطدمت قدمه بالطبلة الفخارية، فانحنى يقلبها فى شغف، ثم تناولها فى رفق وحملها إلى ركن الخيمة وفى قلبه دموع . .

●●●

وأطفأ مارسيل الشمعة وأسدل الستار على باب الخيمة رغم حرارة الجو . . كان يريد أن يعزل نفسه عن العالم، وأن يسبح فى ظلام ضاف، فالظلام يريح نفسه القلقة المعذبة، وأخذ يفكر فى تلك الغجرية الغريبة الطباع، أى امرأة هى؟؟ لقد تجمع فيها سحر الشرق وغموضه وجاذبيته.

أوهمتنى بأنها طوع بنانى، ولم يبدر منها ما ينبئ عن نيتها السيئة، وعندما أوغلت فى الطريق . . الطريق إلى قلبها . . لا . . الطريق إلى جسدها وجدت نفسى أمعن فى الضلال والضياع، غررت بى، ثم تركتنى تائهًا . . وما أظن المعركة الحربية التى نحن عازمون عليها ستكون غير ذلك.

يا لقلبى!! أكان ذلك حلمًا أو حقيقة واقعة؟؟

للشد ما تختلط الحقائق والأحلام على ضفاف هذا النهر الخالد . .

وأخذت نفسه تحدثه بأن يعبر النهر فى الغد، ثم يقذف بسلاحه فيه، وينطلق فى الأرض بلا سلاح، ويبحث عن تلك الجنية الغجرية حتى يجدها ثم يتبعها أينما سارت، تاركًا الحرب والدماء والأهوال، تاركًا باريس هى الأخرى رغم أن له فيها زوجة . .

وأحس مارسيل أنه متعب حقًا، وأن أفكاره لم تعد تسير فى خط طبيعى منطقى، وبدا له أنه يوشك على الجنون فأحضر قليلاً من الماء البارد مس به جبهته، ثم ارتمى على فراشه يطلب النوم، وهو يشعر برغبة ملحة فى البكاء.

ولم يكد يلقى جسده المنهوك على الفراش حتى سمع صفيراً متقطعًا حادًا، كان معنى ذلك الصفير أن المعسكر فى خطر أو أن العربان أو فئات الفدائيين المصريين تدهم المعسكر من إحدى نواحيه، وفى هذه اللحظات يجب على كل الجنود، سواء من منهم فى نوبة الحراسة، ومن فى فترة الراحة أن يكونوا على أهبة الاستعدادات، وأن يخرجوا لملاقاة المهاجمين، ومطاردتهم إذا اقتضى الأمر.

ولم يكد يسمع هذه الصفارة حتى سرت الرعدة فى جسده، وهبّ تلقائيًا، وأمسك بسيفه، وعول على الخروج لكنه وقف لدى الخيمة فى حيرة وهمٍّ، وأخذ ينظر إلى الجنود وهم يتدافعون ناحية مصدر الخطر، وعاد إلى قلبه على الفور الحنق والتمرد، وتصور أن كل ما أمامه حماقة وجنون لا معنى لهما، وأنه إذا لم يخرج إليهم فلن يخسر الجيش إلا واحدًا إنه لا شيء إزاء هذا العدد الكبير.. ثم إنه لا يشعر بأدنى حماس نحو ما يفعلون..

ولهذا آب إلى فراشه، غير عابئ بالأوامر الصريحة للقيادة، ناسيًا أن الأعراب قد يدهمونه فى خيمته فيقضون عليه، بل لعله لو علم ذلك فى هذه اللحظة بالذات وتأكد منه، لرحب به وسعى إليه، رغبة فى أن يتخلص من آلامه وشقائه الذى بدأ يلازمه..

●●●

الفصل العاشر

في هذه الأثناء تغير الموقف الحربي نوعًا، فقد بقي الفرنجة في دمياط وطال استجمامهم فيها، وفي الوقت نفسه أخذ المصريون يفاجئون معسكر الأعداء من آن لآخر، فتحولوا بذلك من الدفاع إلى الهجوم، وأمكنهم أن يأخذوا بعض الأسرى، وامتلأت دمياط بالمفاسد والمهازل وأخذ الجنود يعربدون ويسكرون، ويختطفون النساء، وتشب بينهم الخلافات الشخصية، والتي كثيرًا ما كانت تؤدي إلى امتشاق السيوف وإقامة حلقات المبارزة فيتساقط القتلى وتتخضب الأرض الدماء من أجل امرأة داعرة أو كلمة جارحة، أو بسبب التسابق في الحصول على مطمع تافه، كالفوز بأكبر قسط من غنائم دمياط.

وبات جليًا أن ترك الجنود الفرنجة على هذا الوضع، سوف يدفعهم إلى الإمعان في تناحرهم، وبث بذور الخلاف بينهم؛ لأنهم بلا عمل لا يفكرون إلا في ملذاتهم وأطماعهم التي قد تكلفهم الكثير وتحط من روحهم المعنوية، وتبعث الملل والفتور في حماسهم فيركنون إلى الدعة، ويستسيغون الهدوء والكسل، كما أن حركات المتسللين

المصريين، ونجاح أغلب هذه الوثبات البارعة قد يغير نظرة الفرنجة إلى أصحاب الأرض، فبعد أن كانوا يحسبونهم فئة من الرعاع الفوضويين المتناحرين من أجل الملك، ظهروا في صورة أخرى وأصبح الانتصار عليهم ليس من السهولة بمكان.. وهذا ما حدث فعلاً.

لذلك قال الملك لويس:

- لعلك يا عزيزتي مرجريت في حالة تسمح لنا بالرحيل؟

- أوَ تزمعون مواصلة الزحف؟

- لقد ألقينا رجاءنا على الله الحي الذي هو مُخَلِّص جميع الناس ولا سيما المؤمنين[1].

- ومتى ترحلون يا مولاي؟

- عندما أتأكد أن مليكتي على ما يرام.

فصمتت مرجريت برهة، ثم قالت في دلال:

- أوَ يهمك أمري لهذا الحد؟

- أيحتاج ذلك إلى سؤال يا عزيزتي؟

- وإذا لم أكن على ما يرام، أتواصلون زحفكم؟

- نحن لم نبرم أمر المسير بطريقة مؤكدة بعد، ونستطيع تأجيله إلى الوقت الذي نشاء؛ لأن أخي لم يصل بعد بإمداداته وقواته، ولأن ذلك

(١) كثيراً ما كان لويس يتمثل بهذه العبارة.

لن يغير من النتيجة شيئًا، فانتصارنا على الأعداء أكيد، ونحن أكثر عددًا وعدة، ثم أتحسبين أن ذلك الهاتف الإلهى الذى انتدبنى- وأنا على فراش الموت- لهذا العمل الخطير، أتحسبينه يغرر بى؟ كلا يا عزيزتى. .

- حسنًا . . ليسرْ مليكى فى رعاية الرب، تحوم حولك روحى وتدعو لك بالنصر المؤزر. .

ثم أخذت مرجريت تسأل لويس عن الطريق الذى سوف يسلكونه هل سيذهبون إلى الإسكندرية، ويتخذون طريق النيل الغربى قاصدين القاهرة من هناك، أم سيواصلون الزحف عن طريق احتلال المنصورة، والوصول إلى القاهرة بمحاذاة فرع النيل الشرقى؟؟

وأفهمها لويس، أن أخاه الأمير دارتو ربما يكون مصرًا على الزحف إلى المنصورة للقضاء على قوات القاهرة أولاً، ومما شجع لويس على قبول هذه الخطة، هو أن «روبرت» بطريرك القدس قد وافق عليها، ولويس يثق فى رجال الدين- رغم جهلهم بالمسائل الحربية - ويتفاءل خيرًا بآرائهم؛ لأن الرب - كما يعتقد لويس - يوحى إليهم بالقول الصادق، والخطة المثلى.

●●●

وبينما كان الفرنجة على هذه الصورة من الصراع الأعمى، والتفكير المغرور، كان المصريون لا يعرفون لأنفسهم غير خطة واحدة لا ثانى لها، وهى أن يواجهوا العدو فى أى ميدان، وأن يلاحقوه أينما ذهب، فأخذوا يواصلون استعداداتهم ليل نهار،

فيبنون الاستحكامات وينشئون الشوانى والمراكب ويجمعون الذخائر والمؤن ، ويعيدون تنظيم صفوفهم، ويبعثون بالمتطوعين وطلائع الاستكشاف حتى فى قلب معسكر الأعداء.

وآثر عدنان بن المنذر هو وصديقه عبد الأعلى بن سلمان أن يلحقا بالعربان والمتطوعة، وينضويا تحت لواء القوات غير النظامية، ويقوما بالأعمال الانتحارية التى يجدان فيها لذة كبرى، وحرية أكثر، وقد كان الملك الصالح نجم الدين أيوب، يؤيد مثل هذه الأعمال، ويرصد المكافآت والمنح لأصحابها، بل ويعطيهم قطعة ذهبية مقابل كل أسير من الأعداء . .

وذات ليلة جلس عبد الأعلى بن سلمان فى كوخ مقام من الأحطاب وسط الحقول، تحيط به بعض الأشجار التى تحجبه عن الأنظار، أما عدنان فقد خرج فى أول الليل ليقوم بعملية حربية، وأصر أن يكون وحده، ورغم أن الوقت قد تأخر، والفجر أوشك على الطلوع إلا أنه لم يعد، وهذا ما بعث القلق والإشفاق فى قلب صديقه عبد الأعلى، فبقى يقظان يذود النوم عن عينيه، وبين حين وآخر يخرج ليحملق فى الظلام لعله يستطيع أن يرى شبح عدنان قادمًا من بعيد، فإذا ما طالت وقفته وأجهدت نظراته عاد إلى الكوخ ينتظر على مضض، ثم يلقى اللوم على نفسه لعدم مرافقته لعدنان.

وسمع عبد الأعلى دبيب خطوات تقترب مع الفجر . .

وعلى الفور أمسك بسيفه استعداداً للطوارئ ثم خرج من الكوخ ووقف على الباب ينتظر.

واقترب من الكوخ شبحان لا شبح واحد.

وهتف عبد الأعلى بصوت أجش «من القادم؟؟».

فجاءه صوت أحد القادمين يقول مقهقهاً:

- حذار أن تضرب بسيفك فوق رأسي يا عبد الأعلى وإلا كسرت قلنسوتي، ثم إن معي ضيفاً مسكيناً..

وأغمد عبد الأعلى سيفه، ثم أقبل نحوهما، وهو يقول:

يا لك من مستهتر يا عدنان!! ماذا كنت تنتظر؟؟ لعلك أردت أن تطلع الشمس عليك وأنت في معسكر الأعداء.

وتطلع عبد الأعلى إلى المرافق لعدنان، وكم كانت دهشته عندما وقعت عيناه على رجل مغلل اليدين.

- مَنْ هذا؟

فقال عدنان في سخرية:

- وهذا شهيد البطيخ.

- البطيخ؟؟ إنك تخرف.

- لندخل أولاً.. إني أشعر بالبرد الشديد، لقد قضيت ساعتين في الماء، ألديك نار؟

واستقلى الصديقان على ظهريهما من الضحك، عندما كان عدنان يروى ما حدث له فى تلك الليلة، كل ذلك والرجل المغلل اليدين جالس فى ذلة، طرق فى مسكنة وجسده يرتعد من الخوف والبرد، لكنه مع ذلك لا ينطق ببنت شفة.

وتحسس عبد الأعلى رأس عدنان، ثم انتزع قلنسوته، ولم تكن هذه القلنسوة سوى بطيخة قد استخرج ما فيها، وقطعت بحيث توضع بإحكام فوق رأس عدنان.

قال عدنان:

- ليس فى هذه البطيخة ما يغرى بالأكل.. إنها مجرد قشور لقد وضعتها على رأسى، وسبحت فى النيل حتى اقتربت من معسكر الفرنجة لدى الشاطئ الآخر من النيل، وطال بقائى هناك دون جدوى، وأخيراً أحسست بهذا الحارس الذكى يقبل نحوى، ثم يحملق فى البطيخة، أعنى قشر البطيخة، ويبدو أنه من عشاق البطيخ، وكم كانت سعادتى عند ما رأيته يشمر عن ساقيه وينزل إلى الماء، وحينما مد يده ليلتقطها، كانت يدى أسبق منه، أمسكت بذراعه، وجذبته إلى الماء، وسبحت به وهو فى غمرة الذهول والدهشة.. لم يكن يظننى بشراً، بل خُيِّل إليه أنى عفريت من الجن.. ومن ثم أخذ يصرخ فى ارتياع، لكنى كنت أغمر رأسه فى الماء فأكتم صرخاته، وهكذا بلغت الشاطئ الآخر ثم غللته بالحبال، ودفعته أمامى أسيراً.. وهكذا راح صاحبنا شهيد البطيخ..

عاد الصديقان يضحكان من جديد . .

وقال عبد الأعلى :

- أى شيطان أوحى إليك بهذه الفكرة؟

- الحاجة تفتق الحيلة يا صديقى . لقد تعلمت الكثير إبان وجودى فى السجن ثم إنى أجد لذة غريبة فى ابتكار مثل هذه الحيل، إنها رغم سذاجتها تأتى بنتائج رائعة .

وفى صباح اليوم التالى كان عدنان يسوق أسيره إلى حيث ترابط قوات فخر الدين، لعلهم يستجوبونه فى بعض خطط العدو وتدبيراته .

●●●

الفصل الحادى عشر

لم تستسلم زمردة فعلاً للأمر الواقع، فمنذ أن أخذوها قسراً وألحقوها بركب الجاريات فى معية توران شاه، وهى تفكر فى الخلاص منه، كان مظهرها يوحى بالثقة والاستسلام لكنها كانت تخفى وراء هدوئها ناراً متأججة، وتمرداً ثائراً، غير أنها أخذت تفكر، وتمعن فى التفكير، وما إن بلغت حصن «كيفا» واستقر بها المقام ونامت عنها عيون الرقباء والحراس حتى استطاعت أن تجمع بعض الدنانير والحلى فى كيس معها، أخفته فى مكان أمين بين طيات ملابسها، وأسرعت فى تنفيذ ما اعتزمته قبل أن يطلبها توران شاه، ويسلبها أعز شىء لديها، وفى هدوء الليل وسكونه تسللت - مثلما تسلل عدنان ذات مساء من سجنه- واحتواها الظلام. .

كانت لا تدرى ماذا تفعل بعد هروبها من حصن كيفا، ومع ذلك فقد كانت السعادة تغمرها من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وشعرت بالحرية. . الحرية الجميلة، وهى تتنفس نسائم الليل البارد وتوسع الخطو نحو المجهول، وحينما طلع الصباح كانت فى غاية

الإنهاك والتعب، إن رجليها لم تتعودا المشى الطويل، قلة النوم هى الأخرى كان لها أثر كبير، بيد أنها كانت تقاوم عوامل التعب وتجر رجليها جرًا سالكة الطرق الجانبية، مخافة أن يلحق بها بعض الجنود الذين سوف يبعث بهم توران شاه حتمًا عندما يكتشف هروبها وهذا ما حدث فعلاً . .

وتحسست زمردة المكان الأمين الذى أخفت فيه كيس الدنانير ثم وثبت إلى ذهنها فكرة، لِمَ لا تشترى جوادًا من أى مكان يصادفها فى الطريق ثم تنطلق بسرعة كى تتخطى حدود المنطقة الخطرة، ثم تقصد حلب أو دمشق ثم تفكر بعد ذلك فى الرحيل إلى مصر؟ . . وراقت لها الفكرة، وبعثت فى نفسها الأمل . . الأمل فى الخلاص نهائيًا من القفص الذى وضعها فيه توران شاه، وكان عليها أن تنفذ ما اعتزمته فورًا، لكن هل مجر د الرغبة فى ذلك سوف يدفع أمامها بالجواد الذى تريد؟؟

وفاض ضوء الشمس على كل مكان، وأحست زمردة بالضيق ينتابها؛ لأن الضوء فضاح ، والنهار يلفت الأنظار إليها، ما كان أجمل الظلام . . !!

وحينما أخذ منها التعب كل مأخذ تلفتت حولها يائسة، وشعرت بميل جارف إلى البكاء ولكن ماذا يجدى البكاء فى هذه اللحظات الحرجة، يجب أن تكظم دموعها، وتبحث عن مخرج، ووقفت تحت ظل شجرة كثيفة الفروع، وخلف جذع الشجرة كانت تجلس امرأة عجوز .

- طاب صباحك يا أماه.

- صباح الخير يا ابنتي:

ونظرت العجوز إليها وسرعان ما بانت الدهشة في عينيها، وقالت:

- بنت ملوك؟

- كلا يا أمي.. فأنا فتاة ضلت الطريق.

ولأول مرة تعرف زمردة أن ملابسها الحريرية الفاخرة، لا تتفق مع كونها فتاة مسكينة ضلت الطريق، وصعدت العجوز النظر فيها مرة أخرى، وقالت:

- أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك يا ابنتي.

- إني أقصد حلب.

- حلب!؟ إنها بعيدة الشقة لا يصل الناس إليها إلا بعد أن تجهد الخيل، فما بالك وأنت على قدميك؟

إزاء رنين الذهب، والإغراء السخي، استطاعت العجوز أن تدبر لها ما تريد، غير أن زمردة لم تستأنف السير إلى حلب إلا بعد أن حل المساء وحصلت على بعض الملابس المتواضعة التي لا تلفت النظر، ورغم أنها لم تكن تجيد ركوب الخيل لدرجة كبيرة، إلا أنها لم تجد صعوبة تذكر، ولم يكن يقلقها إلا كونها فتاة جميلة ووحيدة، ليست تدري ماذا يخبئ لها القدر من مفاجآت في طريق

السفر، ومع ذلك فقد انطلقت بجوادها فى لهفة، مؤمنة أن أى إنسان آخر- مهما كانت فظاظته - لن يكون أقسى من توران شاه.

وكان فى قلبها يقين عجيب، يؤكد له أنها سوف تصل مصر مرة ثانية فى يوم من الأيام لكن هل فكرت فيما ينتظرها هناك؟؟

أليس من المتوقع أن يلمحها واحد من أذناب توران شاه فيعاود الكرة، ويرغمها على العودة من حيث أتت؟ أم أنها سوف تبلغ غايتها متنكرة، وتظل كذلك حتى يقضى الله أمرًا؟

وبعد مسيرة أيام رأت أن الأمر ليس بالبساطة التى كانت تتصورها، لم تكد تمر بقرية أو تلتقى بأحد إلا وأثارت الشكوك من حولها، ودفعت الناس إلى التساؤل، ومن ثم قررت أن تتأنى في سيرها، وأن تتخذ لها عملاً، حتى تتجنب بذلك إثارة الشبهات، وفى الوقت نفسه يدر عليها بعض المال الذى أوشك أن ينفذ.

واحترفت زمردة الغناء.

وطرقت أبواب القرى والمدن على طول الطريق الذى مشت فيه، كان صوتها الملائكى الساحر يجذب إليه القلوب لما فيه من حرقة وحنين، ولما يخالطه من حزن وألم دفين، وفتحت أمامها بيوت الكبار والصغار على السواء، فأطربت المسامر، وأمالت الرءوس، وسال بين يديها، ورغم الإلحاح والإعجاب الذى لاقته فى كل بلد تنزل فيه إلا أنها واصلت المسير، لكن فى بطء وكانت تعد دائمًا بأنها سوف تعود.

وعند مدخل حلب، شاهد الناس فتاة وسيمة سمراء الوجه واسعة العينين طويلة الأهداب، تغنى بصوت حنون:

اذكــرونا مــثل ذكـرانـا لكم

رب ذكـرى قَـرَّبتْ من نزحـا

واذكـروا صــبّـا إذ غـنى بكم

شــرب الدمع وعـاف القدحـا

وسرعان ما تجمعوا حولها مأخوذين بجمال صوتها، وجمال طلعتها، وحينما بسطت شالها تساقطت فيه الدنانير كثيرة، وفى الوقت نفسه كانت نظرات المعجبين تكاد تلتهمها التهامًا، وهمسات الإغراء تلاحقها من آن لآخر، غير أنها أغضت الطرف عن كل ذلك، وحاولت أن تخلص منه بلباقة، وما أشقاها من مهمة!!.

وعاشت في حلب ما شاء الله لها أن تعيش، ثم آن الأوان لأن تتوجه إلى دمشق، وفى دمشق سمعت بأنباء الفرنجة، وهجومهم على مصر، ورأت الكثيرين من الناس يزمعون الرحيل إلى القاهرة للاشتراك فى المعركة وصد المعتدين، كما علمت برحيل الملك الصالح أيوب كذلك إلى هناك، ولهذا عولت على أن ترافق بعض القوافل الذاهبة تجاه مصر، ويبدو أنها فكرت فى الأمر من كل نواحيه، ثم قدرت أنه ليس من المعقول أن يتعرض لها أحد أو يشى بها إنسانًا، فى وقت عصيب كهذا، وليس للناس أحاديث غير

أحاديث الحرب والفرنجة وبطولة الملك الصالح نجم الدين أيوب رغم مرضه، وخروج الناس أفواجًا إلى الميدان بما فيهم المماليك والمصريون فلاحين وتجارًا، وحركة الاستعداد الضخمة التى تتجلى آثارها فى كل مكان، ثم إن توران شاه لم يزل فى حصن «كيفا» ولا يعقل أن يرصد كل إمكانياته وعيونه من أجل جارية هاربة فى هذا الوقت بالذات.

●●●

ومع أصيل ذات يوم بلغت بيت مولاتها أم عدنان.

البستان المهجور قد جفت أشجاره أو كادت، والبيت تبدو عليه آثار القدم، وأمام البيت جلس الفقيه الأعمى الذى يتكسب بقراءة القرآن يرتل فى صوت مرتعش:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقصدت من فورها ناحية الباب، لكنها وجدته مغلقًا، فقرعته قرعات خفيفة متلهفة وهى تمنى نفسها بالأمانى العذاب.. لا شك أنه بالداخل، ترى كيف سيستقبلها؟؟ وبأية طريقة سوف تعبر له عن حبها وأحاسيسها؟ وأمه تلك الطيبة العجوز أتراها سوف تبش لمقدمها أم أنها سوف تشيح عنها؛ لأنها مصدر المتاعب، وسبب تعاسة ابنها وعدائه لابن السلطان؟

وواصلت القرع على الباب دون جدوى.

فأخذت تدور حوله محاولة أن تتسلل بنظراتها إلى الداخل، لكن النوافذ هى الأخرى كانت مغلقة وعادت إلى موقفها الأول لدى الباب، وعاودت الطرق، لكن صوت الشيخ الأعمى جاءها هذه المرة فى نبرات حزينة:

- لقد رحلوا.

فقالت زمردة وهى تقبل نحوها:

- إلى أين؟.

- هى إلى الدار الآخرة.. عليها رحمة الله، وهو إلى ميدان القتال فى الشمال، ولا يعلم أحد عنه شيئًا، ويبدو أنه لم يعرف بعد موت أمه بعد رحيله بأيام. وقطع الشيخ الأعمى حديثه فجأة، ثم التفت إليها بوجهه المغضن ذى اللحية البيضاء، وقال:

- من أنت!! زمردة؟.

فقالت وهى تشهق باكية:

- أجل يا سيدى الشيخ.. زمردة.

- هكذا حال الدنيا يا ابنتى، وكل شىء إلى زوال، ولا يبقى إلا العمل الصالح، أوَ تريدين شيئًا يا ابنتى؟؟ معى مفتاح البيت أتأخذينه.. وأخذت منه المفتاح.. ولم تقضِ فى البيت الخاوى الذى يعشش فيه العنكبوت، وتجلله الوحشة سوى ليلة واحدة..

وفى صباح اليوم التالى كانت فى طريقها إلى الشمال ناحية المنصورة. . أكانت تطمع فى أن تجد عدنان بين عشرات الألوف من المحاربين المبعثرين فى كل مكان. . على الشواطئ. . وفى الحقول. . وفى القرى والمعسكرات؟؟



الفصل الثانى عشر

إن الكوارث كثيراً ما يأتى بعضها آخذاً برقاب بعض، حتى لكان القدر يمعن فى السخرية والازدراء، ويشتد فى العقاب، وإلا فما معنى أن يذوق مارسيل مرارة الغربة، ويكتوى بنيران القلق الفكرى، ويصاب بخيبة الآمال، ليس ذلك فحسب، بل إن تلك الغجرية السمراء التى مال قلبه إليها، وأوشكت أن تحيل فراغ قلبه وأسى أيامه إلى متعة وسعادة، هى الأخرى قد اختفت وهو أشد ما يكون احتياجًا إليها، ولهفة عليها، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل إنه فى صبيحة اليوم التالى تسلم رسالة من باريس حسبها لأول وهلة تحمل إليه التهنئة لانتصارهم على قوات دمياط أو آتية زوجته تشجعه فيها، وتطمئنه على نفسها، وتؤكد حبها له، وأملها فى لقائه، وكم كانت دهشته حينما فتح الرسالة وقرأ السطور التالية:

عزيزى مارسيل:

إنك تحارب من أجل الرب وتغزو باسم الصليب، وتخوض فى برك الدم.. لكن وا أسفاه!! إن امرأتك فى الوقت نفسه تقضى

الليالى الحمراء فى باريس مع الشيطان، وتغرق نفسها فى مستنقعات الإثم والخطايا ، مع عشاقها الكثيرين، حتى أصبحت فضائحها على كل لسان، إنى أصلى من أجلك أيها المسكين المخدوع . . وأصلى من أجل امرأتك الخاطئة التى تستحق القتل أكثر مما يستحقه أولئك الأعداء الذين تحاربهم، ولك تحياتى المخلص «م».

ودارت الأرض بمارسيل، وهو يقرأ هذه الكلمات . . بل الخناجر المسمومة التى توجهها الأقدار إلى صميم كبريائه وشرفه وأصيب بالذهول والشرود، وعجز عن أن يفكر أو حتى يثور، ووقف مهمومًا حائرًا بلا إرادة؟؟ هل معنى ذلك أن الأقدار تنتقم لاستهتاره القديم، وعبثه الذى اشتهر به من قبل؟؟ كثيرًا ما عربد وسخر من كرامة الآخرين، لكنه لم يتصور أن ينقلب عليه ذلك ذات مرة، وأن يفعل به الناس، مثلما فعل بهم بالأمس؛ لأن الإنسان ينكر على غيره، ما قد يقبله بالنسبة إلى نفسه.

هذا ما كان يفكر فيه، وهو واقف أمام المخازن فى نوبة حراسته بعد منتصف الليل، وغمغم فى أسف: «اللعنة على الحرب ومشعليها، وعلى الحياة والأحياء . . وعلى كل شىء فى هذا الوجود».

ولم ينتبه لتلك التى قدمت من خلفه، واختطفت سيفه قبل أن يفيق إلى نفسه، ووجد مارسيل نفسه يندفع نحوها، عازمًا على أن يستعيد سيفه، ويقبض على يديها، دفاعًا عن حياته . . حياته

اليائسة الدامية، لكنه توقف فجأة، حينما لمح تلكما العينين الواسعتين ذات الأهداب الطويلة والوجة الأسمر الفاتن الذى يضج بالفتنة والجاذبية فى ضوء القمر.

- هل أتيت؟

قالها مارسيل وهو لا يكاد يصدق عينيه، فأجابته الغجرية فى عبث:

- أجل.. لأنى جائعة.

وتلفتت الغجرية حولها ولما وجدته وحيداً، همست قائلة:

- أين رفيقك الجندى؟؟

- ذهب ولن يعود.. اختطفه عفريت بالأمس وغاص به فى أعماق النيل..

- إذن ستظل هكذا..

- كلا.. سوف يحل محلى غيره بعد فترة قصيرة، ثم نعود إلى الخيمة كى تأكلى، لكن حذار أن تفكرى فى الهرب هذه المرة..

وأحس مارسيل عند مرآها بغير قليل من السلوى والعزاء، ونسى إلى حين مأساة زوجته، ومباذلها الفاضحة فى نوادى الليل فى باريس، إن سحر هذه الغجرية يدفع عن قلبه كثيراً من الملل والقلق، ويرده إلى الهدوء والراحة، وكما ذهبت الغجرية فجأة وبلا مقدمات، عادت مرة ثانية فجأة أيضاً، ودون سابق إنذار، ما

معنى ذلك؟؟ مجرد ذبذبات فى تصرفات القدر يوم لك ويوم عليك، والحياة ابتسامات ودموع، وأخذ وعطاء ليكف مارسيل عن التفكير فى الحرب والخيانة الزوجية وحياة الغربة القاتلة، والمستقبل الغامض، وليعش بكل كيانه مع هذه الغجرية السمراء.

وبعد وقت قصير عادا معًا إلى خيمة الأمس، وكانت الطبلة الفخارية موضوعة بعناية فى ركن الخيمة، والشمعة المرتعشة تبدو وكأنها شبت أو نمت قليلاً، ولهبها هادئ رزين لا يتحرك فى سخرية أو شماتة، وحينما أحضر لها الطعام، أقبلت عليه الغجرية باللهفة السابقة نفسها وبالسرعة والفوضى نفسها، وأخذ مارسيل يرقبها شاحب الوجه، وما إن أوشكت على الانتهاء من طعامها حتى قال لها:

- سأكون هذه المرة مثل الشرقيين، أبيح لنفسى السكر بلا خمر.

فقالت دون اكتراث، والطعام ملأ فمها:

- من الأفضل لك أن تظل يقظ الفكر، فالسكارى لا يشعرون بشىء، اللهم إلا الخيالات والأشباح..

- أوَ تقضين الليلة معى؟

فأجابت ببساطة دهش مارسيل لها:

- ولِمَ؟؟

- لأنى أريد ذلك.

- وأنا لا أريده . .

- لكن . .

- لكن ماذا؟ لقد أتيت الليلة لأرقص لك وأغنى فقط مقابل تلك الأكلة الشهية التى تقدمها لى، وأنا على استعداد لأن أفعل ذلك كل ليلة، على شرط ألا تمتد يدك إلىّ بسوء، نحن الغجريات كالزهور ذات الأريج، يكفى أن تستنشقها من بعيد، وتحظى بجمال مرآها، أما إذا لمستها فسوف تدمى الشوكات أناملك وقد يسلمها كثرة العبث إلى الموت والذبول.

وظل مارسيل مبهوتًا إزاء موقفها العجيب، ومنطقها المحير، وأخذ يستعيد ما قالته فى اندهاش، ولم يتمالك نفسه أن وثب عليها فجأة كمن افترسها، ولكنها أفلتت منه ووقفت إزاءه، وخنجرها يلمع فى يدها، وعيناها تبرقان كقطة شرسة، وقالت:

- ما أسهل أن أقتلك . . وإذا لم أستطع فسأقتل نفسى . . إن ما قلته لك يجب أن تنفذه وإلا لن ترى وجهى مرة ثانية . .

وتركته واقفًا ينظر إليها والحيرة لم تغادره، ثم أخفت الخنجر فى طيات ثيابها، وانتزعت شالاً فوق رأسها وأحاطت به خصرها، وأخذت تلف وتدور فى الخيمة فى رقصات بارعة معبرة، ولا تكف فى هذه الأثناء عن الغناء المرافق للرقصات، ولم تكد تفعل ذلك لبضع دقائق حتى كانت خيمة مارسيل محاطة بجمع من الجنود الذين أخذوا يقبلون من الخيام المتناثرة ويتمايلون مع حركاتها الرشيقة الفاتنة.

وكفت عن الرقص والغناء حينما لمعت حبات العرق فوق جبينها الأسمر، وتناولت سطل الماء وأخذت منه جرعات، والتفتت إلى مارسيل قائلة:

- يجب أن أعود.

وقبل أن يجيبها أشار إلى رفاقه المحيطين بالخيمة أن ينصرفوا فمضوا وهم يزومون.

وما إن أطبق عليهما الصمت من جديد حتى جذبته من يده ووقفت جواره لدى الشاطئ، وقالت:

- انظر ألا ترى ذلك الضوء الخافت الذى يبدو بعيداً..

- أجل..

- إنه منزلنا.. عدد من الغجر لا يزيد على الخمسة عداً، وإذا لم أعد فالموت جزائى..

- أنا جدير بحمايتك..

- لتحمِ نفسك.. لا تنسَ أن الغجر يرتبطون بميثاق ويخلصون لقوانينهم وقَسَمِهم مهما كان الأمر..

- ألا تبقين معى ليلة واحدة؟..

- كلا أيها الجندى.. إنى أكاد أختنق فى مثل هذا المعسكر، أحس بعيونكم ترصدنى من كل مكان..

وصمتت برهة، ثم قالت:

- سأحاول أن أمر هنا كل ليلة أو كل ليلتين.

- وإذا رحلنا؟؟

- إلى أين؟؟

- تجاه المنصورة لمواصلة الحرب.. سننزل عند البحر الصغير بالقرب من النيل.

- متى؟؟

- بعد يومين أو ثلاثة.

- لاتنزعج سأتبعك أينما سرت، وسأملأ معسكركم رقصًا وغناء ما دمتم توفرون الطعام لى ولمن ينتظروننى هناك فى تلك الخيمة النائية خلف النهر، وما دمتم تحترمون إرادتى ولا تمتد يدكم إلىّ بسوء.

فلم يجد مارسيل مناصًا من أن يقول لها:

- لك ذلك يا.. ما اسمك؟؟

- لى فى كل بلد أنزل به اسمٌ.

- حسنًا ما اسمك هنا؟.

- ياقوتة.. والآن حان موعد رحيلى، ومن حسن حظى أن منطقة حراستك بالقرب من الشاطئ.

وجذبت قاربًا خشبيًا ثبت فى جانبيه مجدافان، وما إن جلست فيه حتى أخذت تجدف ناحية الشاطئ الآخر..

●●●

وفى طريقها إلى الخيمة البعيدة التى يأوى إليها رفاقها الغجر، لم تكن تفكر إلا فى هذا الخبر الذى استطاعت الحصول عليه، إن الفرنجة سوف يزحفون بعد يومين أو ثلاثة نحو المنصورة، وسوف يعبرون البحر الصغير، يجب أن يكون الأمير فخر الدين قائد الجيش على علم بتحركات العدو حتى يتخذ للأمر عدته، بل يجب أن تبعث بأحد رفقائها من الغجر أو الغجريات الليلة إلى فخر الدين أو تذهب هى بنفسها . .

وقهقهت ياقوتة فى بهجة وانشراح، وقالت :

- إن ثمن رقصاتى وغنائى لباهظ جدًا . . وغدًا أعلم كل شىء عن خطط العدو وتحركاته . . يجب أن تنتهى الحرب على صورة ترضينى وتحمى مصر من شر هؤلاء الوحوش .

●●●

أما مارسيل فقد كان واقفًا لدى الشاطئ كالمسحور، لم يكن يتبادر إلى ذهنه قط أن هذه الغجرية السمراء جاسوسة خطرة، تخفى وراء سذاجتها وجمالها ورقصها وغنائها فكرًا يعمل ليل نهار، وتدبيرات محكمة، وغايات أبعد ما تكون عن العبث واللهو . .

ولهذا لم يكن مارسيل يفكر إلا فى جمالها وغرابة أطوارها والليالى الحلوة القادمة التى سوف تطربه فيها بفنها، وترفه عنه بجمالها، وتنسيه بؤسه وشقاءه وقلقه . .

●●●

ولم يكن غريبًا بعد ذلك أن تفد ياقوتة الغجرية السمراء إلى معسكر الفرنجة من وقت لآخر، وأصبحت تأتى فى الليل أو فى النهار، وكانت مصدر ترفيه وتسلية لهم جميعًا، غير أن صديقها المفضل مارسيل- ولم يحاول أحد أن يعتدى على أنوثتها، أو ينال من شرفها، بل اكتفوا بالاستمتاع بفنها والتملى بفتنتها، وكان هذا أجدى عليهم وعليها وإلا فقدوها إلى الأبد. .

وأوحت ياقوتة إليهم بأنها فى حاجة إلى طعامهم ودنانيرهم كما هم فى حاجة إلى فنها، وكانت بارعة فى تحركاتها وتلقفها للأخبار والأسرار الحربية، ومن ثم لم تثر حولها شيئًا من الشك، أو يلحقها ظل من الريبة.

●●●

الفصل الثالث عشر

بعد أن سلم عدنان الأسير إلى القائد فخر الدين، عاد توًا إلى الكوخ الذى اتخذه هو وعبد الأعلى بن سلمان قاعدة لهما، واستفسر عدنان منه عن آخر الأنباء، فأبلغه أن بعض المتطوعين قد أشعلوا النار ليلة أمس فى مخزن للمؤن من مخازن العدو، كما أضاف أيضًا أنه لاحظ حركة غير طبيعية فى معسكر الفرنجة فى اليوم السابق، وسادت فترة صمت قال عبد الأعلى على أثرها :

- وماذا وراءك أنت من أخبار!

فقال عدنان :

- علينا أن نرحل من هنا غدًا .

- ولِمَ! .

- إن الفرنجة سوف يزحفون صوب البحر الصغير، وسوف يعسكرون فى المنطقة المثلثة بين النيل وبحيرة المنزلة والبحر الصغير .

- ومن انبأك بذلك!

- فخر الدين نفسه.

- وكيف علم فخر الدين ذلك!

- عيونه وجواسيسه، لقد سمعت همسًا فى مجلس القائد عن غجرية ذكية، لها القدرة على التسلل إلى معسكر الفرنجة، وخداعهم برقصها وأغانيها، ثم الحصول على أدق الأسرار الحربية، ويبدو أنه يثق فيها وفى أخبارها لدرجة كبيرة.

وحاول عبد الأعلى أن يقنع عدنان بالبقاء، وكانت فكرته تتركز فى أن محافظتهم على مركزهم ذاك سوف تجعلهم يواصلون هجماتهم على مؤخرة العدو، ويطعنونه من الخلف مع باقى المتطوعين، فيثيرون بذلك الارتباك والاضطراب فى صفوف الفرنجة، فى الوقت الذى تكون فيه قوات فخر الدين واقفة لهم بالمرصاد فى الضفة الثانية للبحر الصغير، لكن عدنان لم يكن معه فى فكرته تلك؛ لأن الأعداء سوف يقذفون بقوات كبيرة فى المقدمة، كى يحاولوا عبور البحر الصغير، ويسارعوا باحتلال المنصورة، وهى مركز مهم من مراكز الدفاع، ومعركتها تحتاج إلى حشد القوى، وملاقاة العدو بما هو أهل له من استعدادات كبيرة، وخاصة أن فخر الدين وقواته لاينوون التزحزح عن مواقعهم مهما كلفهم ذلك من ثمن.

ولم يجد عبد الأعلى مناصًا من أن يوافق رفيقه على رأيه آخر الأمر ومن ثم أخذوا يعدون العدة للرحيل فى الغد.

●●●

وقصد الملك الصالح نجم الدين أيوب المنصورة على محفته، ونزل بالقصر السلطانى وكانت العلة قد اشتدت به، فزاد ذلك من آلامه وأسفه، وكانت إلى جواره شجرة الدر تواسيه وترفه عنه، ومن حوله رجاله من المماليك والوزراء وكبار العلماء يشدون من أزره، ويرفعون من روحه المعنوية، وكان هو بدوره يبذل جهداً جباراً للظهور بمظهر القوى المتماسك الذى لا يهزمه المرض، ولا يخيفه زحف الأعداء، وتحرشهم به وبشعبه.

●●●

ومرت أيام نزل الفرنجة خلالها المكان الذى حددته ياقوتة الغجرية، وأخذوا يبعثون بطلائعهم إلى فارسكور والبرمون والمناطق المجاورة لهما، ويفكرون بطريقة لعبور البحر الصغير لعلهم يستطيعون مواصلة زحفهم إلى المنصورة، أما فخر الدين فقد كان ينظر إلى الاستحكامات والتحصينات التى يقيمها العدو شمال البحر الصغير بعين القلق والتلهف على مباغتتهم من الشمال، والهجوم عليهم فى المنطقة الواقعة بين شرمساح وفارسكور.. بعد أن يعبر البحر الصغير تحت جنح الظلام، واستطاع فخر الدين عن طريق ياقوتة الغجرية التى واظبت على زيارتها لمارسيل والمعسكر

الصليبى أن يعرف مدى استعدادات العدو وتوزيع قواته والوجهة التى يتجهها، ولم يكد يعزم على تنفيذ الأمر الذى ارتآه حتى فوجئ برسول يأتى من قبل شجرة الدر يطلبه لأمر مهم.

●●●

كانت شجرة الدر تجلس فى حجرتها شاحبة الوجه، محتقنة العينين، وكان باب الحجرة مغلقًا لا يسمح لأحد بالاقتراب منه إلا جاريتها الخاصة. . وأخذت شجرة الدر فى جلستها تلك تستعيد ما حدث فى الليلة الماضية. وتذكرت تلك النوبة العنيفة من السعال الحاد التى دهمت الملك الصالح، وجعلته يطفح الدم من فمه، وحينما اقتربت منه فى خوف وإشفاق نظر إليها بعينيه الغاربتين، وقال:

- إن رسول الموت يقف بالباب يا شجرة الدر.

فقالت مأخوذة:

- ماذا يا مولاى؟..

- إنك تتجاهلين الأمر الواقع، يبدو أنى فى لحظاتى الأخيرة، أحس أن نهايتى تقترب. . لم يبقَ فى العمر بقية أيتها الزوجة العزيزة. . ليس لنا فى الأمر حيلة.

فقالت شجرة الدر والدموع فى عينيها:

- إن الله أرحم بنا من أن ينزعك من بيننا فى هذه اللحظات الحرجة، يجب أن تثق فى ذلك.

فأجابها وقد ارتسمت على ثغره ابتسامة باهتة :

- أنا لا أخاف الموت يا حبيبتى . . إنه العدو الوحيد الذى لا يقهر ، يجب أن نحنى له الرأس ونسير خلفه طائعين . . لكن أمر الموت لا يخيفنى إلى هذه الدرجة ، بل إنى لا أفكر إلا فى وضع البلاد الراهن ، الأعداء يزحفون من كل جانب ، والناس يقفون لهم بالمرصاد من كل فج والحرب دائرة . . لكن أليس الناس فى حاجة إلى ملك . . إلى رجل يثقون فيه ويثق فيهم؟ . . أترين إنسانًا يخلفنى بعد موتى ويحمل أمانة الحكم حملاً صادقًا . . ؟ ستقولين توران شاه . . كلا يا عزيزتى إنه داعر . . عربيد . . بئس الابن هو ، إنى لا أستطيع أن أتصور مصر وقد جلس على عرشها ذلك المأفون الخليع . . كلا . .

قالها ثائرًا ، مما أعاد إليه نوبة السعال من جديد ، فانحنت عليه شجرة الدر تهدئ من روعه ، وتخفف من حدة ثورته ، وتقول :

- لِمَ هذه الأفكار السوداء يا مولاى؟ إنك لم تزل بخير والحمد لله ، وسوف يكتب الله لك الشفاء ويهبك العمر المديد .

فلم يكترث الملك الصالح لكلامها ، بل واصل حديثه :

- أكاد أجزم أن توران شاه لا يحظى بحب أحد من الرعية اللهم إلا بطانة السوء التى حوله ، بل إن هؤلاء بدورهم يحتقرونه وإن كانوا يظهرون له الإعجاب والتقدير ، وماذا تنتظرين من شاب يعيش عبدًا لأهوائه ، ويخلق لنفسه العداوات والأحقاد بسبب مطامعه؟

فقالت شجرة الدر :

- ما دمت بيننا يا مولاى فيجب ألا تفكر فى توران شاه ، ولندعه فى حصن كيفا كما هو .

- كلا يا عزيزتى . . كم يقلقنى ، ويؤرق علىّ ساعاتى الأخيرة أن أترك مكانى شاغراً ، أو أسلمه لمجنون مستهتر مثل توران شاه ، اسمعى ياعزيزتى الحبيبة يجب أن يترك أمر وراثة الملك للخليفة فى بغداد يصرفه كيف شاء . . لم يخلق توران شاء ولدى ليكون ملكًا ، فالصعاليك إذا ما تولوا أحالوا بيت الحكم إلى حانة للخطايا .

يجب أن تعدينى بذلك .

وسكت لبضع لحظات وهو يبعث أنفاسه اللاهثة ، وغمغم فى صوت خفيض :

- آه . . لكم أتمنى أن أعيش وأرى بعينى فلول الأعداء وهم يولون الأدبار فيكون البحر من أمامهم وقواتنا من خلفهم . . وأرى أبناء بلادى فى مواكب النصر الأغر يكبرون ويهللون ويترنمون . .

إنها لحظات حلوة يا شجرة الدر ، أراها بعين الخيال ، فيرقص قلبى العليل من شدة الفرح وكأنه فى عنفوان شبابه وقوته . .

بالله عليك يا شجرة الدر إذا رأيت طلائع النصر تنطلق فى سهولنا الخضراء ، فلـ . . .

ولم يستطع الملك الصالح نجم الدين أيوب أن يكمل عباراته، فقد خارت قواه، ووقع فى غيبوبة من أثر الإجهاد والانفعال الذى سيطر عليه حينذاك . . وبعدها بساعات أسلم الروح.

●●●

وانهارت شجرة الدر، وجرت دموعها غزيزة فوق خديها ثم دفنت رأسها فى فراش زوجها، وأخذت تشهق شهقات مكتومة مخافة أن يسمعها أحد، وأحست شجرة الدر بعد فترة أن الدموع التى ذرفتها قد خففت بعض الشىء عن قلبها الجريح وسرعان ما جففت دموعها، وانتصبت واقفة، وقد اكتسى وجهها بالصرامة والجد، وقالت:

- لن يجدى البكاء الأمر خطير ويحتاج إلى الحسم والكتمان، وإلا ضعنا وضاعت مصر، وضاع من خلفها بلاد كثيرة.

وأخذت تفكر بسرعة وحدة، لقد كانت شجرة الدر كما قلنا من ذلك الصنف الذى تشحذ عقله الأزمات، وتكشف عن عبقريته وكفايته، ومن ثم قررت أمرًا . . وعلى الفور أرسلت فى طلب فخر الدين ابن شيخ الشيوخ والطواشى جمال الدين محسن.

●●●

قلنا إن شجرة الدر كانت تجلس فى حجرتها شاحبة الوجه، محتقنة العينين، أمام زوجها فقد كان مسجيًا فى فراشه، بعد أن فارقته الحياة لكن لم يكن أحد يعلم بما حدث، وكانت تنتظر على أحر من الجمر مجىء فخر الدين، والطواشى جمال الدين محسن.

وحينما التأم شمل الثلاثة ، أفضت إليهم شجرة الدر بحقيقة الوضع ، وأبانت لهم عن خطتها التى تتلخص فى ألا يعلن عن موت الملك حتى لا تتأثر الحالة الحربية بذلك ، فتظل الأوامر تصدر من القصر السلطانى مختومة بخاتم السلطان ، وليقدم السماط فى موعده المحدد ، ولتمضِ الأمور كأن لم يحدث شيء .

فلم يعترض الطواشى أو القائد ، غير أن فخر الدين قال :

- نحن طوع أمرك يا مولاتى ، غير أننى أتساءل . . إلى متى يظل كرسى السلطنة شاغراً؟

فأجابت وهى ترمقه بنظرات آمرة ثابتة :

- إلى أن يأتى توران شاه من حصن كيفا .

فقال دهشًا :

- توران شاه؟ كيف؟

-لأنه الوارث الوحيد يا فخر الدين ، ولأن الحالة الراهنة تقتضى ذلك .

فلاذ فخر الدين بالصمت مدة قصيرة ثم استدرك قائلاً :

- إن مصلحة البلاد فوق كل اعتبار ، وما دام مولانا الملك الصالح قد أوصى بذلك قبل موته ، فلننفذ إرادته .

فقالت شجرة الدر :

- كلا لم يوص بذلك .

- فبماذا أوصى إذن؟

- ترك الأمر لمشيئة الخليفة، والخليفة فى بغداد أضعف من أن يبرم أمرًا، وأبعد ما يكون عن مشاكلنا وأحداثنا، ونحن هنا نقرر مصيرنا بأنفسنا، كان من السهل يا فخر الدين أن أدعك أنت تقعد على كرسى السلطنة، أو أدع بيبرس أو أقطاى أو أيبك، لكن ماذا ستكون النتيجة؟ سوف تتحول المعركة من نضال ضد الفرنجة إلى صراع من أجل الحكم فنفقد كل شىء.

وعندما انتهت شجرة الدر من حديثها، أطرق فخر الدين صامتًا، بينما أثنى الطواشى جمال الدين على قولها ثناء عاطرًا، ودعا لها بالتوفيق والسداد، وأكد لها طاعتهم وإخلاصهم جميعًا لما تشير به، ثم تبعه فخر الدين، وأقسما على الولاء لأوامرها.

●●●

وعند انصرافهما كان فخر الدين يفكر «أية امرأة تلك؟!».

لقد أحببتها من أعماق قلبى، وأخلصت لها الرد، ولم أدع» فرصة تمر دون أن ألمح لها بحقيقة مشاعرى نحوها، وكنت أدرك أنها تحمل لى فى قلبها شيئًا كبيرًا رائعًا، غير أنها عندما واتت الفرصة، وأصبح من الميسور أن أصعد إلى جوارها على أريكة مصر، ترددت وداست عواطفها، ولم تلب نداء قلبها، لم تتصرف كأنثى، بل تصرفت كملك ضليع أوتى من الشجاعة والحصافة ما لا يخطر على بال..

وغداً يعود توران شاه فتضيع الفرصة إلى الأبد، وأظل كما أنا فخر الدين ابن شيخ الشيوخ قائد الجيش، ويظل مليكى وآمرى المفدّى، ذلك المستهتر الملتاث توران شاه . . .

لا بأس . . ما دامت مصلحة البلاد تقضى ذلك يجب ألا تتكرر مأساة دمياط، ويجب ألا أفكر الآن فى غير إيقاف زحف الفرنجة، وأن أكيل لهم الصاع صاعين، من يدرى قد يكون فى رأس شجرة الدر أشياء أخرى، وقد تأتى لنا الأقدار بأشياء لم تكن تخطر لنا على بال .

●●●

الفصل الرابع عشر

كانت ياقوتة الغجرية مطرقة صامتة فى خيمتها، وكان من حولها من الغجر هم الآخرون صامتين لكنهم كانوا فى لهفة إلى أخبارها، لقد اختفت ثلاثة أيام كاملة مرت خلالها بمعسكر المسلمين فى المنصورة، وقابلت فخر الدين، وعرجت على المكان الذى ينزل فيه الأعداء، ورقصت وغنت وتحدثت مع مارسيل، وعلمت منه بطريقتها الخاصة ما كانت تود الإلمام به من خطط العدو وأسراره، وتحرك أحد الأصدقاء الجالسين فى الخيمة من مكانه عن صمته قائلاً:

- ما كنت تفعلين طوال هذه الأيام الثلاثة؟ إن مقابلة فخر الدين لا تحتاج لأكثر من ساعات قلائل.

فقالت ياقوتة:

- لقد طفت بأغلب تجمعات المقاومة فى المنصورة وما حولها.

- لماذا كل ذلك؟؟

- لماذا . . . هذا هو السؤال، لقد كنت أبحث عن شيء وأعيانى البحث الطويل، لكنى عدت بخفى حنين .

- أهناك أشياء أخرى تشغلك عن المعركة يا ياقوتة؟

فتنهدت قائلة :

- من يدرى؟؟ إن قلب ياقوتة مثقل بالكثير . .

وبلباقة ومهارة استطاعت أن تدير دفة الحديث إلى ناحية أخرى، وأخذت تروى لهم عن تسلل فخر الدين بقواته تحت الظلام وعبوره النهر الصغير، ومفاجأة العدو من الشمال بين شرمساح وفارسكور، وتكبيده خسائر فادحة، لم تنسَ أن تلح فى فخر وإعزاز إلى ما بذلته هى فى هذا السبيل من معاونة فخر الدين فى سلوك الطريق الأنجح، ومهاجمة نقط الضعف فى معسكر العدو .

وبعد ذلك تحدثت عن موت الملك الصالح نجم الدين أيوب وبلوغ إشاعة موته إلى مسامع الأعداء، وطربهم لذلك أيما طرب، وحماسهم المنقطع النظير لعبور البحر الصغير حتى يدهموا المنصورة لكنهم فشلوا؛ لأن فخر الدين والمماليك فى تمام اليقظة والحيطة . . ثم روت لهم عن رحلتها الأخيرة إلى معسكر الفرنجة منذ ساعات، وحدثتهم عن ذلك القسيس الذى رآها ترقص وتغنى وقد احتشد من حولها الجنود ومعهم مارسيل، وما إن رآها القسيس بينهم ترقص رقصاتها الملتهبة حتى قال :

- ما هذا الذى تفعلون يا أبناء الرب، ويا جنود الصليب؟؟ إن السيد المسيح يسوءه أن تنصرفوا إلى اللهو، ولا تفكروا فى غير الحرب.. أيها الأبناء الأمراء عودوا إلى أماكنكم، واحذروا الشياطين؛ لأنها كثيرًا ما تتزين فى ثوب النساء.

فما كان من ياقوتة إلا أن زحفت نحوه وأخذت ترقص أمامه وهو يحاول جاهدًا أن يحجبها عن بصره، بوضعه كفيه فوق عينيه، لكن ياقوتة قد أمسكت به متلبسًا وهو يرمقها من بين فرجات أصابعه خفية، فقهقهت عاليًا، بينما قال مارسيل:

- اذهب أيها الأب إلى صومعتك، واحذر الفتنة، وانعم هناك فى وحدتك بحرمانك اللذيذ وكفاك أنك لا تخوض المعارك، أما نحن أبناء الموت، فلا لوم علينا إذا ما اختطفنا لحظات حلوة من نعيم الحياة التى توشك أن تودعها.

وانهالت على القس التعليقات المختلفة من أفواه الجنود، وكلها تجمع بين السخرية منه والنفور من نصائحه، والثورة عليه وعلى تزمته وتظاهره، ففر القس مذعورًا، وكأنه يهرب من وباء فتاك يوشك أن يلحق بجسده، ولكنه كان يغمغم فى ثورة وحنق ويقول: زندقة.. هرطقة.. عصيان للرب الممجد.

وعاد الجنود إلى تحلقهم حول ياقوتة، وأخذوا يضربون على أكفهم ضربات منتظمة، تتفق مع حركات رقصاتها، غير أنها وقفت فجأة، وجذبت يد مارسيل، زاعمة أنها سوف تقرأ له

الكف، فمد يده مستسلمًا، بينما بقية الجنود دورهم فى لهف، لعل هذه الغجرية الحسناء تنبئهم عما يطويه الغيب فى صفحاته الغامضة، وبعد أن دققت النظر فى كفه همست فى صوت غنائى فاتر:

عصفورك طار

وقلبك حار

مسكين مارسيل

فقهقه الرفقاء واختلط ضجيجهم وصرخات إعجابهم، ومد آخر يده ليسمع ما تقول الغجرية الذكية، لكن مارسيل دفعها بعيدًا، وقال:

- خبرينى يا ياقوتة.. أى عصفور تقصدين؟؟ هنا.. أم هناك فى باريس؟

فتخلصت منه فى لباقة، بينما قال زميله الذى لحقه الدور:

- هنا وهناك أيها الوغد... دعها تقرأ لى، ولا تكن أبله.. وقرأت ياقوتة الكف المفرودة أمامها..

السيف يدور

ودماك تفور

مسكين يا جميل

وفوجئ الجنود بمن يخترق صفوفهم، ويمضى بينهم شامخ الرأس، متغطرس النظرات، قاصداً ياقوتة، وكانت ملابسه الثمينة، وملامحه التكبرة تنبئ عن أنه شخصية كبرى، هذا ما حدسته ياقوتة، وسرعان ما تأكد لها صحة حدسها حينما صاح أحد الجنود قائلاً:

- الأمير دارتوا.. شقيق صاحب الجلالة.

وتمالكت ياقوتة أعصابها، وظهرت بمظهر الغجرية اللعوب التى تتحلى بقدر غير قليل من السذاجة، وحينما مر الأمير دارتوا يده إليها باسمًا قالت فى ارتعاشة:

قـــضـــاء وقـــدر

وعـــجـــب العـــبـــر

الحـــق أقـــــول

فلوى الأمير شفتيه دون أن يفهم شيئًا، وابتسم ابتسامة ساخرة وكأنه يهزأ من ألغازها التى تحمل أكثر من معنى، دون أن تؤكد معنى صريحًا واحداً، وعاد من حيث أتى، ولو علم بما يخبئه له القدر فى الأيام القادمة، وفى حارة من حارات المنصورة، لهاله الأمر ولتأكد فعلاً أن حياته وسلوكه الأرعن سوف يكون عبرة ودرسًا لكل طائش ذى أهواء..

●●●

هذا ما كانت ترويه ياقوتة لزملائها الغجر فى الخيمة بعد عودتها من معسكر الفرنجة، وكانوا يستمعون إليها فى إعجاب وانشراح وتقدير لمواهبها وإتقانها لدورها الذى تقوم به.

وصمتت برهة ثم قالت:

- من منكم يذهب غداً إلى فخر الدين؟

- لقد كنت عنده يا ياقوتة أمس الأول فما الداعى للذهاب إليه غداً.

فقالت وقد ظهر الجد على ملامحها:

- إن الأعداء سوف ينشئون برجين كبيرين فى الغد، وحاجزاً لحمايتهم وسيكون البرجان مصدر خطير كبير على قواتنا ومن ثم كان على فخر الدين أن يتخذ الاحتياطات اللازمة، ويحاول ألا يمكنهم من إقامة الاستحكامات الخطرة.. كنت أفضل أن أذهب بنفسى إلى المنصورة، ولكن الواجب يقتضينى أن أذهب إلى الفرنجة غداً، وخاصة أنهم على أبواب عمل كبير بعد موت الصالح، وفضلاً عن أنهم يعرفون ما يكنه الشعب من كراهية لذلك الطاغية توران شاه الذى أوشك أن يتسلم مقاليد الحكم فى البلاد.. بل نمى إلى سمعى أن مقامهم لدى الضفة الشمالية من البحر الصغير سوف ينتهى.

فقال أحد الجالسين فى ثقة:

- وأين يذهب الفرنجة؟ إننا نسدُ عليهم كل منفذ.. ألم يقع الكونت أنجو شقيق الملك أسيراً فى يدنا؟

- أيها الأبله، الحرب لا تعرف مثل هذا الغرور..

- ليس غروراً، لكنه مجرد ثقة بأنفسنا وبجيوشنا.

- الثقة شيء جميل، لكن إذ لم يصحبها اليقظة والعمل والاستعداد لكل طارئ فهي ضرب من الغرور والعبث.

فأطرق الرجل مؤمنًا على حديثها، ثم قال:

أنا على استعداد لأن أذهب إلى فخر الدين غداً.

فأجابته ياقوتة:

- حسنًا، لسوف أكتب إليه رسالة، وحذارِ أن تغفل أو تتهاون.

- كوني مطمئنة..

وأخيراً آوت ياقوتة إلى فراشها، لم تكن تفكر في الرسالة التي سوف تبعث بها إلى فخر الدين لأن مضمونها معروف لديها، ولم تشغل بالها بما ستفعله في معسكر الفرنجة في الغد؛ لأنه أمر مألوف تعودت عليه، وأتقنت القيام به.

ولكنها كانت تفكر في شيء آخر، لم يكن يخطر على بال أحد من رفقائها ورفيقاتها، شيء غامض مجهول بالنسبة لهم جميعًا، لكنه يشغل حيزاً كبيراً من تفكيرها.

●●●

الفصل الخامس عشر

فك عدنان الضمادة التى حول ذراعه ثم نظر إلى الجرح العميق الذى لم يندمل بعد، ثم طلب من عبد الأعلى أن يحضر له الماء الساخن والأربطة القماشية كى يقوم بتنظيف الجرح وغسله وإعاده ربطه كما كان، وأخذ عدنان يستعيد ما قاساه فى الثلاثة أيام الفائتة، لقد اشترك فى الهجوم على معسكر الفرنجة، وأبلى بلاء حسنًا، واستطاع أن يذهب بعيداً داخل تجمعات الأعداء، وكان عبد الأعلى يحذره ويجذبه إلى الخلف ويشير عليه العودة بعد ذلك النجاح الذى أصابوه، لكنه أبى أن ينصاع لنصائحه وتمادى فى تقدمه، وفوجئ بجندى صليبى يخرج عليه من مخبأ يستره الظلام ويوجه إليه طعنة قاتلة؛ لكن عدنان تفاداها فى آخر لحظة عندما صرخ به عبد الأعلى فلم تصب منه مقتلاً، لكنها أصابت ذراعه، وتركت فيه جرحًا غائرًا، ومع ذلك فقد أجهز هو وصديقه على الجندى ولم يتركاه إلا جثة هامدة، وحينما رجعا إلى موقعيهما بعد المعركة كان الجرح قد نزف كثيرًا من الدماء فبان الإجهاد والشحوب على وجهه وسقط فى إغماءة طويلة، ثم أصابته حمى شديدة من

أثر الجرح الملتهب ظل يهذى تحت وطأتها ثلاثة أيام كاملة، ووجد عبد الأعلى نفسه مضطراً لأن يبقى إلى جوار صديقه، كى يقوم له بالإسعافات البدائية، التى لا تزيد على الماء الساخن والأربطة المحكمة، والحقيقة أن عبد الأعلى كان فى قمة خوفه وجزعه؛ لأنه حسب أن الطعنة التى تلقاها عدنان فى ذراعه قد تكون مسمومة، ومع ذلك فقد وكَّل أمره لله، وأخذ يصلى ويضرع حتى تكتب له السلامة ويمر من مرحلة الخطر، فيعود سليمًا معافى، وماذا كان عبد الأعلى يستطيع أن يفعل غير ذلك؟

وحينما انتهى عدنان من تنظيف الجرح وربطه قال وهو يبتسم:

- إنى أشعر بجوع شديد.. ثلاثة أيام كاملة لم أذق خلالها غير الماء.

فقال عبد الأعلى وقد سره التحسن الذى طرأ على زميله:

- حسنًا... لقد اصطدت كمية من السمك فجر الليلة، إن السمك المشوى يفتح الشهية ويعيد إليك الصحة والعافية.

وكان عبد الأعلى وهو يعد له الطعام يحدثه عن الهذيان الذى كان ينطق من فمه مختلطًا محمومًا، ويلقى التعليقات الساخرة على كل كلمة يقولها عدنان، أما هو فقد جلس أمام الطعام، وبدا أن حركاته وملامحه تصطبغ بالخجل، وخاصة عندما قال عبد الأعلى:

- كنت فى هذيانك صريحًا واضحًا، لم تخفِ شيئًا ألبتة، كنت

كطفل صغير لا يخاف لومًا ولا يكترث لحرج . . لطالما تكلمت عن ذلك اليوم الموعود .

فالتفت إليه عدنان دهشًا ،لكنه عاد وأطرق، وهو يغمغم :

- أى يوم موعود تقصد؟

- ألا تعرف أنت؟

- كلا . . .

- أنت تكذب لقد برح الخفاء، إن يومك الموعود كما فهمت من هذيانك ما هو إلا حلم عجيب . . هو ذلك اليوم الذى تنتقم فيه من توران شاه على شاطئ النيل لتراها فى انتظارك .

- مَنْ؟

- زمردة أيها العاشق الولهان . . . يا لها من ثلاثة آمال كبرى!! دائمًا أنت تجنح إلى الخيال فى مطامعك .

فلم يجب عدنان، بل أتاح الفرصة لعبد الأعلى كى يمضى فى ثرثرته -«وكنت تهذى بأيام محنتك، وما فعلته فيها، وبأبيك الذى لم تره، وأمك هى الأخرى كان لها نصيب كبير فى هذيانك» .

وحينما سمع عدنان اسم أمه، شحب لونه، وخفق قلبه فى خوف، غير أنه أخفى مخاوفه، وعاد إلى الصمت، محاولاً أن يعلل هذه الرجفة التى انتابته، لكنه لم يستطع أن يجد لها ما يبررها سوى مشاعر الغربة والشوق واللهفة إلى لقاء الأحباب، لم يكن

يدرى ما حدث لأمه، لقد تركها فى صحة لا بأس بها، وأسرع إلى الميدان دون أن يدرى بعد ذلك عنها شيئًا، ولم يصله منها أية مراسلات؛ لأنه حوّاب آفاق لا يعرف له مكانًا ثابتًا، والمعركة تقتضى أن يكون اليوم قرب دمياط، وغدًا ما بين فارسكور وشرمساح، وبعد غد فى المنصورة أو ما يحيط بها، ثم أنه هو الآخر لم يجد الوقت الكافى ولا الوسيلة المضمونة كى يبعث إليها ليطمئنها، وحينما وصل تفكيره إلى هذا الحد قال فى مرارة:

- كلنا وديعة عند الله، وما قدر يكون ولا مفر من المكتوب، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

فرد عليه قائلاً:

- ترى ما الذى أورد ذكر الموت على بالك؟ أهو ذلك الجرح الذى فى ذراعك؟

لا أدرى على وجه الدقة، لم يزل رأسى نهبًا لدوامة عاصفة من الخواطر رغم أننى أحاول أن أحرقها فى جحيم المعارك.

ومع ذلك فها أنت ترى، أنى حتى فى هذيانى وأحلامى أيضًا لا أستطيع الفكاك مما يلم برأسى من خواطر وذكريات.

تصور أننى كنت فى نوبة حمى أشعر كأن زمردة بجوارى، تربت على رأسى، وتلمس جرحى فى حنان بالغ، وظلت إلى جوارى طوال فترة غيبوبتى.

فقاطعه عبد الأعلى قائلاً:

- وحينما صحوت من أحلامك ورؤياك الخادعة لم تجد غير وجهى الذى يشبه وجه الفقر أو النكد.

وضحك الصديقان، غير أن عدنان سرعان ما توقف عن الضحك، وقال فى جد واهتمام:

- والغريب علىّ أنه بالرغم من ذلك كانت زمردة تقف وبينها وبينى حاجز رقيق، وكنت كلما حاولت أن أمد يدى إليها وهى تربت على رأسى أو تلامس جرحى، توقفت يدى عن الحركة حتى لكأنما أصبت بالشلل، ومن ثم أفقت من غيبوبتى وأنا أشعر بمزيد من الضيق والألم.

فقال عبد الأعلى وهو يرفع ما تبقى من الطعام:

- لا عليك يا صاحب اليوم الموعود.

وأخذا ينتقلان من موضوع إلى آخر، ويحللان الموقف الحربى وما يتوقعانه من الفرنجة فى الأيام المقبلة، ثم جاء توران شاه، فاختلجت شفتا عدنان عند ذكره، وأحس بما يشبه النار يلفح روحه، وعاوده اليأس من جديد، لقد شاءت الأقدار أن يوشك عدوه اللدود على تولى الحكم بعد موت أبيه، فما إن يحضر من حصن كيفا مع أقطاى حتى يصير الآمر الناهى ويومذاك لن تعود إليه زمردة حبيبته الهاربة من الطغيان، ولن ينعم عدنان بالحرية، فمن المرجح أن يقذف به فى السجن مرة ثانية، ومن يدرى؟ قد يأمر

توران شاه بضرب عنقه انتقامًا لكرامته بسبب هروب زمردة، ألم يقل له عبد الأعلى إن توران شاه قد أقسم لينتقمن منهما؟؟

إن آماله كلها يوشك أن يلفها الظلام من جديد، بعد أن خيِّل إليه أن نجمه أصبح فى صعود، وذلك اليوم الموعود الذى يحلم به فى منامه، ويهذى به تحت وطأة الحمى، ويصرخ به فى يقظته يبدو وكأنه رابع المستحيلات الثلاثة..

فكيف ينتصر شعب على رأسه رجل مثل توران شاه؟؟؟

وكيف يسعد عدنان وعدوه يمسك بيده مقاليد الأمور، ويحتل كل الإمكانيات؟

وكيف تعود زمردة من رحلتها المجهولة، وذلك الشيطان الأرعن توران شاه فى طريقه إلى القاهرة؟

ولم يحاول عدنان أن يخفى عن صديقه حقيقة ما يعتمل فى مخه، غير أن عبد الأعلى قال:

-سوف ينتصر شعبنا رغم وجود توران شاه يا عدنان؛ لأنه هو الآخر يريد أن يحمى عرشه، ولأن شعبنا أقوى من السلطان والفرنجة مجتمعين، والمعركة كما يبدو لى تسير فى اتجاهين اثنين: أحدهما خفى لا يظهر للعيان وهو يتعلق بالتخلص من توران شاه، وثانيهما هو المعركة الواضحة المكشوفة التى تدور رحاها بيننا وبين الفرنجة.

●●●

واقتنع عدنان بمنطق صديقه، وأحس في قرارة نفسه براحة غامضة مبعثها الرضا بما يضمره الغيب، وما تأتي به العناية الإلهية، لكنه كان يتساءل بينه وبين نفسه: لمَ لم يتسلم فخر الدين مقاليد الحكم مثلاً؟ لِم لم يقع الاختيار علىَ أي إنسان آخر يضع الأمور في نصابها ويجمع حوله القلوب؟

ولماذا لم يتوجوا شجرة الدر، وقد أثبتت مهارة فائقة في إدارة دفة الأمور بعد موت زوجها وقبل موته أيضًا؟ اللهم لا اعتراض على حكمك، ولا راد لمشيئتك.

وأفاق عدنان من خواطره المضطربة على ضجة تنبعث قريبًا من خيمتهم، فخرج عبد الأعلى يستجلي حقيقة الأمر، فما راعه إلا وتلك الغجرية السمراء ذات الأهداب الطويلة والتي يدعونها ياقوتة تنطلق بجوادها ناحية الجنوب، وخلفها بعض الغجر، كان أحدهم يهتف في عجلة:

- احذروا . . . إن الأعداء يزحفون.

فأسرع عبد الأعلى إلى الخيمة، ليخبر عدنان بما سمع وليستعدا للرحيل..

●●●

الفصل السادس عشر

نعود إلى ياقوتة الغجرية بعد أن بعثت برسالتها إلى فخر الدين تخبره فيها بما ينتوى العدو من إقامة برجين وحاجز، فقد خرجت إلى المناطق المجاورة تبحث عن شيء افتقدته من زمن بعيد، وكان رفاقها لا يعلمون سوى القليل عن نوايها وخططها، وكانوا مرغمين على إطاعة أوامرها بعد أن كلفهم فخر الدين بذلك، فضلاً عن أنهم شاموا فيها الإخلاص والغيرة الصادقة على مصلحة بلدها، وتكررت رحلاتها، لكنها كانت تعود فى كل مرة مهمومة محزونة؛ لأنها لم تجد بغيتها أو تعثر لها على أثر، تلك البغية التى طال بحثها عنها، وجريانها وراءها، حتى حفيت قدماها وأصابها الملل والانهماك.

وقصدت ياقوتة معسكر الأعداء، كما كانت تقصده كل مرة، لقد أصبح مرآها مألوفًا هناك ولم يعد أحد بين الفرنجة يفكر فى جرح إحساسها، والعبث بأنوثتها، بعد أن تأكد لهم حرصها على شرفها، وعدم تهاونها إزاء أى مساس بكرامتها، فظلت على حد تعبيرها مثل الوردة التى تبعث بأريجها، دون أن تلمسها يد، أو

كالبلبل الذى يترنم فوق غصنه بعيداً عن هدف الصائدين . . . كانت تعطيهم الفن والمتعة والمرح ، وتأخذ منهم المال والطعام ، وكانوا دائمًا يقبلون عليها فى لهفة ، ويستمعون إلى أغانيها فى شوق ويتمايلون مع رقصاتها فى نشوة .

لكنها لم تجدهم كذلك ذات يوم .

كان المعسكر يسوده الوجوم والوجل ، بعد أن تكررت هجمات فخر الدين العنيفة فى الليل والنهار ، وكثر عدد الضحايا من الأعداء ، وبعد أن فشل الفرنجة فى إقامة البرجين اللذين كانوا يأملون من ورائهما الكثير .

وكان أكبر عامل فى هذا الوجوم وذلك الوجل بمعسكر الفرنجة هو ظهور ذلك السلاح الرهيب الذى يشبه ألسنة اللهب ، أو صواعق الشياطين والذى يسمونه النار الإغريقية ، فقد استطاع المصريون بهذا السلاح السحرى أن يبثوا الذعر فى صفوف العدو ، وأن يقضوا على كل محاولة لبناء الأبراج أو الاستحكامات على الضفة الشمالية للبحر الصغير ، لذلك فكر الفرنجة فى الزحف ناحية البرامون لاحتلالها حتى يوسعوا دائرة مواقعهم ، وليبحثوا لهم عن خطة أخرى لخوض معركة نهائية مع المسلمين .

ولم يخف على ياقوتة ما طرأ عليهم من حيرة وارتباك وخوف ، ثم إن مارسيل هو الآخر أكد لها ما حدسته حينما التقت به فى خيمته ، إذ قال لها :

- فى غسق الليل جاء المسلمون بآلة عجيبة، ووضعوها تجاه الأبراج التى كنا ساهرين على حراستها، ثم قذفونا منها بشىء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب. . . نار كأنما هى الدنان المشتعلة، وذيولها من خلفها مثل الحراب الطويلة، ودويها يشبه الرعد وكأنها جارح يشق الهواء، ولها نور ساطع جدًا من جراء عظم انتشار اللهب الذى يحدث الضوء، ترين كل ما فى المعسكر كما لو كان فى وضح النهار، وقد رمى علينا المسلمون هذه النار فى ثلاث مرات من الآلات الكبيرة، وأربع مرات من القسى العريضة فى إحدى الليالى. . ولم تجد نفعًا يا عزيزتى تلك الطوابى التى بنيناها ولا الجسور الثابتة أو المتنقلة التى حاولنا أن نتسلل فوقها.

وصمت مارسيل وقد ارتسم الحزن على ملامحه، بينما هزت ياقوتة كتفيها فى غير اكتراث وغمغمت فى خبث:

- لا شأن لى بحربكم. . إنى أكره الحرب والحديث عنها، لست أدرى ما الذى أتى بكم من بعيد؟ ألا تجدون ما تأكلون فى بلادكم؟

فابتسم مارسيل لسذاجتها الظاهرية، وقال:

جئنا نحمل المبادئ الكبيرة وننشر النور.

فحملقت فيه دهشة، وقالت:

- عجيب أمركم، أية مبادئ تحملون؟!، إن فاقد الشىء لا يعطيه كما كانت تقول جدتى رحمها الله، وأنا لا أرى بينكم شيئًا يلفت النظر، إن قسيسكم كان ينظر إلىّ من بين فرجات أصابعه فى

رغبة واشتهاء، بينما كان يصب فى آذانكم نصائحه، وجنودكم فئة من الأطفال الأغرار يلعبون بالسيوف، ويرمون بأنفسهم إلى أحضان الموت بلا تفكير، أما نبلاؤكم وأشرافكم.. ماذا أقول؟ عابثون مغرورون.

واستدركت ياقوتة بعد أن تمادت فى النيل منهم، وتذكرت أنها أمام رجل من الأعداء مهما كان بينها وبينه من مودة وتفاهم، ولذلك أسرعت قائلة:

- ومع ذلك فإن حديث الحرب يصدع الرأس.

وانتهز مارسيل هذه الفرصة، وأخذ يحمل حملات شعواء على أولئك الذين تسببوا فى مجيئه إلى هنا، ويسب قادته وقساوسته، ويؤكد لياقوتة صحة ما تشير إليه فى حديثها، ويبين سخطه وحنقه على تلك الحياة الدامية التى لا تخفى ثناياها غير الموت أو العذاب.

وحدثها عن مدى حزن الملك لويس بسبب وقوع أخيه الكونت أنجو فى الأسر، حتى لكأنما غيره من الأسرى المساكين الذين اختطفهم المسلمون شىء لا يهم به. والعجيب أن مارسيل كان يصف أسر الكونت فى تشفٍّ، ويتحدث عن مدى الأثر العميق الذى تركته هذه الحادثة فى نفوس الأسرة المالكة.

وكم كانت دهشة ياقوتة كبيرة حينما تناهى إلى سمعها دقات الطبول إيذانًا بالخطر، ولم يكن مارسيل أقل منها دهشة وحنقًا، وفهمت منه أن معنى هذه الدقات العالية هو أن بعض الكتائب

المصرية فى طريقها إلى معركة جديدة، ونصحها بأن تسارع بالعودة حتى لا تصاب بأذى، لكنها أصرت على البقاء ولم يفلح إلحاح مارسيل وتلويحه لها بالخطر المحقق فى زحزحتها عن موقفها، ولم يكن مارسيل يعلم ما يعتمل فى داخلها، لقد مات الرقص، وسئمت الغناء بعد أن يئست من العثور على ذلك الشيء الغامض الذى تبحث عنه، ومن ثم لم تعد للحياة وزن بالنسبة لها، ولم يخفف عنها، ويرفه عن قلبها المكلوم الجريح سوى أنها تفعل شيئًا، وتؤدى مهمة ذات بال، وتسهم بمجهودها المتواضع فى هذه المعركة الكبرى، وحينما دقت الطبول إيذانًا بالخطر لم يرتعد قلبها كما كان يفعل من قبل، ولم تسر الرعشة فى جسدها خوفًا من الموت ومناظر الدماء البشعة، والوحشية التى تهز الضمائر هزًا عنيفًا، ولما لم يجد مارسيل فائدة من إقناعها بالانصراف، هتف فى عجلة:

- حسنًا.. لتبقى هنا، إنه مكان أمين نوعًا ما، وبعيد عن أرض المعركة المنتظرة لكن حذارِ أن تغادرى هذا المكان.

وبعد أن مضى مارسيل جلست ياقوتة وحدها تفكر، كان المعسكر فى حركة متصلة، وضجيج دائم، لكنها كانت تعيش فى عالمها الخاص، غارقة بكل حواسها بين أمواجه الصاخبة ذلك العالم الذى لا يعرف مارسيل عنه شيئًا غير الرقص والغناء، والذى يجهله رفقاؤها من الغجر تمام الجهل، ولا يكادون يدركون سوى أنها عين لفخر الدين على تحركات الأعداء.

وصحت ياقوتة من هواجسها على صوت أحد الجنود يروى لأحد أصدقائه فى زهو وابتهاج كيف داهم أحد الخونة على «مخاضة سلمون»، حيث يمكنهم العبور عندها إلى الشاطئ الجنوبى للبحر الصغير، ومفاجأة المصريين وهم على جهل تام بما يحدث، وعلى الفور أدركت ياقوتة خطورة الأمر، إذا لم يعلم فخر الدين بخطة العدو الجديدة، لقد حاول الفرنجة محاولات يائسة لعبور هذا المجرى وبذلوا فى ذلك الكثير من أموالهم ودمائهم، فلم تجد الجسور نفعًا ولم تستطع الأبراج حمايتهم، وبالتالى وقفوا حائرين يتلقون ضربات المجاهدين العرب فى حنق، ولا يدركون كيف يقضون على هذه الأزمة، ويعبرون البحر الصغير فى عدد كبير يضمن لهم الحماية، ويقف فى وجه المصريين المتربصين على الشاطئ الآخر، والآن وقد عرفوا «مخاضة سلمون»، فقد تغلبوا على تلك العقبة الكئود، ووجدوا الوسيلة الناجعة لمباغتة فخر الدين وقواته، ومواصلة الزحف إلى المنصورة.

وفكرت ياقوتة أن تنطلق مسرعة إلى فخر الدين كى تكشف له أوراق العدو وحركاته الجديدة، لكنها كانت مرغمة على البقاء حتى يعود مارسيل؛ لأن الليل كان قد أقبل، وحالة الطوارئ -كما يبدو،- معلنة فى أنحاء المعسكر، ومن يدرى؟؟ قد يكون المسلمون تسللوا فعلاً إلى المعسكر، وفى هذا الليل لن يفرقوا بين رجل وامرأة، ولن يميزوا ياقوتة من غيرها، ولهذا آثرت أن تنتظر

مارسيل حتى يعود، وسوف يتكفل هو كالمعتاد بحمايتها وتوصيلها إلى خارج المعسكر فى أمان.

وسرعان ما نسيت يا قوتة أحلامها وآمالها الذاتية، والشىء الغامض الذى تبحث عنه ولم يعد يسيطر على ذهنها سوى اكتشاف العدو لمخاضة سلمون، وضرورة إبلاغ هذا النبأ الخطير إلى فخر الدين بأسرع ما يمكن.

وحينما عاد مارسيل قال مرتبكًا:

- يجب أن ترحلى فورًا يا ياقوتة.

- ماذا هناك؟

- إن الجو مشحون بالأحداث والتطورات الجديدة، وقد نهجم فى أى وقت.

وحينما غادرت ياقوتة معسكر الفرنجة كان الليل قد مضى إلا أقله، فآثرت أن تنتظر ساعتين أو ثلاثة حتى يشرق الصباح ثم توفد من قِبَلها من يبلغ فخر الدين بأمر المخاضة أو تذهب هى بنفسها، ولم تَكن تعلم أن الأحداث أسرع منها، وأن الأقدار تدبر شيئًا آخر غير ما اعترضته، فما إن استيقظت حتى كان الأعداء قد استطاع عدد كبير منهم أن يعبر النهر عند المخاضة، وخاصة فرسان المعبد أو الداوية كما كانوا يسمونهم وفرقة من الجنود الآخرين على رأسهم دارتوا أحد أشقاء الملك الثلاثة.

ولو علمت يا قوتة ما يخفيه الغيب فى طياته من أسرار رهيبة لصعقت لهول الكارثة .

●●●

ولم تضع ما بقى من الوقت ، ظنًا منها أنها قد تستطيع أن تستدرك ما قد فاتها ولهذا انطلقت فوق جوادها ، ومن خلفها عدد من الرفاق ميممة شطر المكان الذي يقيم فيه فخر الدين ، فرآها عبد الأعلى على هذه الصورة ، وسمع أحد مرافقيها ، وهو يقول : احذروا . . . إن الأعداء يزحفون .



الفصل السابع عشر

لم يكن فجر الثلاثاء من أيام فبراير عام ١٢٥٠م قد أشرق بعد، بل كان الليل أسود السحنة، قاتم الجلباب، والمسلمون فى الضفة الجنوبية للبحر الصغير فى سكون وهدوء لا يفكرون فى شيء اللهم إلا قضاء وقت قصير للراحة والاستجمام بعد ذلك المجهود المضنى الذى بذلوه فى الآيام السابقة، أما القائد فخر الدين فقد كان فى حمامه يستعد لصلاة الفجر الذى لم يؤذن بعد، ولقراءة القرآن، ولم يكن أحد منهم يعلم شيئًا عن اكتشاف الفرنجة لمخاضة سلمون.

أما الملك لويس التاسع فقد كان فى قمة انتعاشه وسروره فأسرع يلبس ملابس الحرب، وتمتم بصلوات خافتة وهو جاث على إحدى ركبتيه مطأطئ الرأس، أمام تمثال العذراء، وحينما انتهى من الصلاة، التفت إلى مرجريت قائلاً:

- هأنتذا ترين أيتها العزيزة مرجريت أننا اليوم على أبواب النصر الذى حلمنا به، لقد أصدرت أوامرى بالاستعداد لخوض البحر الصغير عند سلمون فى هدوء وتكتم حتى ندهم الأعداء وهم نيام، ومن ثم نستطيع أن نعمل فيهم السيف ونشبعهم تقتيلاً وتنكيلاً.

واستطاع دارتوا شقيق الملك ومعه النبلاء والبارونات والفرسان الإنجليز وفرسان الداوية أن يعبروا النهر دون أن يحس بهم أحد، وعلى الفور قصدوا المعسكر السلطانى على حين غرة وتوغلوا فيه، وأخذوا يعملون سيوفهم فى النائمين، وأولئك الذين يترنحون بين اليقظة والمنام، وصحا العسكر المسلمون على الضجة المفاجئة وصاح صائح:

- أيها الأمير فخر الدين . . . الحذر الحذر . . . إن الفرنجة قد أقبلوا تحت جنح الظلام . .

وساد الارتباك المعسكر السلطانى، وأخذ الجنود يجرون هنا وهناك باحثين عن خيولهم وأسلحتهم، ولم يصدق فخر الدين أذنيه حينما باغتته الصيحة المشئومة، وسرعان ما غادر الحمام، ووثب على ظهر حصانه بلا درع أو لأمة، وأخذ يجوب المعسكر وهو فى حيرة من أمره محاولاً أن يلم الشعث ويجمع الجنود وينظم الصفوف، ويبث بينهم الثقة ويرفع من روحهم المعنوية، وأدرك على التو أن الأمر من الصعوبة بمكان . . فماذا يفعل إذن؟؟

أينسحب هو وجنوده إلى المنصورة حتى يأمن روعهم ويذهب عنهم أثر المباغتة، ويستعد لوثبة أخرى؟

وصرخ فخر الدين تأثرًا: كلا . . . لن تتكرر مأساة دمياط، وسأفى بما أقسمت عليه ولن يمر الكفار إلا على أشلائنا . . لن نستسلم أو نتراجع . . . إما إلى القبر وإما إلى الصدر.

ماذا يقول عنه الناس إذا تراجع مرة ثانية؟

وماذا تقول عنه شجرة الدر التى وثقت بكفايته وشجاعته، وأسبغت عليه تقديرها وربما حبها أيضًا؟

سيثبت للجميع هذه المرة أن الموت لا يخيفه، وأن حب الحياة لن يثنيه عن واجبه الوطنى والدينى، وسيثبت للأصدقاء والأعداء على السواء أنه أكبر من الخوف والمطامع والحياة.

ماذا تكون النتيجة إذا ما احتل الفرنجة المنصورة هى الأخرى، ومصر ما زالت بلا سلطان لأن توران شاه لم يكن قد أقبل، والعرش تجلس عليه امرأة هى شجرة الدر بصفة مؤقتة، والناس أعصابهم متوترة ومخاوفهم تشتد؟

لحظات رهيبة قاتلة مرت سريعة على ذهن فخر الدين وهو ينطلق بجواده، لكنه وضع حدًا لهذه الخواطر حينما أخذ يصيح فى إصرار وثقة.

- أيها المسلمون. . لتثبتوا فى مكانكم. . . احملوا السيوف، وامتطوا الجياد واقذفوا بأنفسكم فى وجه العدو.

ولفتت صيحته الأنظار وخاصة فرسان المعبد أو الداوية الذين كانوا على مقربة منه، وكم كانت دهشتهم حينما رأوا رجلاً يدع إلى الثبات والمقاومة ويرفض التسليم وهو لا يحمى نفسه بشىء، حتى درعه لا يتحصن بها، وعندما علموا أنه القائد فخر الدين، وتيقنوا

من ذلك، أحاطوا به من كل صوب، وأحكموا حوله الحصار، وناشته سيوفهم وهو لا يزال مستميتًا فى الدفاع والمقاومة.

وأخيرًا تهاوى من فوق جواده مضرجًا بدمائه... كان وجهه يشرق بالسعادة والثقة.

وأخذ يلفظ أنفاسه الأخيرة فى أشرف ميدان وأنبل معركة، ويبدو أنه أحس بأنه قد أدى واجبه كاملاً، وأرضى ضميره، ووفى بقسمه فغمغم وهو على أعتاب الأبدية:

- ليحفظك الله أيها البلد الأمين.

الحمد لله الذى كتب لنا هذه النهاية الشريفة.

واحتل الأعداء «جديلة» وقد أخذ النور يزحف من الأفق الشرقى، وبهت المسلمون حينما علموا باستشهاد قائدهم الهمام الذى أثنى على شجاعته وفضله الأعداء والأصدقاء، وكان لموته عميق الأثر فى نفوسهم، فترقرقت فى عيونهم الدموع، وسرى إلى قلوبهم الأسى والحزن، حتى شجرة الدر أصابها الذهول، وأخذت تعض على أناملها من الغيظ والأسف ثم انفجرت باكية، وهى تقول:

- أنا لا أبكى فيه فردًا بذاته، وإنما أندب فى فقده جيشًا بأكمله.

وانتشى الفرنجة بخمرة النصر المبدئى الذى أحرزوه، ذلك النصر الذى هيأته لهم الأقدار لأمر يعلمه الله، وازداد «دارتوا» غرورًا وثقة بنفسه، وخيّل إليه أن المعركة لا تعدو جولة أو جولتين، ثم تستسلم المنصورة كما استسلمت دمياط من قبل، ونظر إلى المنصورة التى

تلوح له من بعيد كالأمل الحلو، وسرعان ما فاضت به النشوة وانبعثت فى قلبه لهفة شديدة للانطلاق نحوها، فوكز جواده، ثم هز رجليه مستأنفًا المسير.

لكنه سرعان ما توقف عندما رأى مقدم الداوية -قائد فرسان المعبد- يرفض التقدم فعاد إليه دارتوا المتهوّر، وقال:

- لا تضيع الوقت. . . هلم بنا إلى المنصورة.

- كلا. . .

- لماذا أيها الأخ «جيل»؟

- هذه أوامر الملك، إن بقية الجيش سوف يعبر المخاضة اليوم، وسوف نستأنف المسير غدًا، وكفى ما نلناه اليوم من نصر.

- لكنى آمرك أن تتقدم.

- والملك يأمرنى بالانتظار أيها الأمير دارتوا.

- وأنا باسم الملك أصدر أوامرى.

- أوامر الملك لا مناقضة فيها.

- إنها الخيانة يا جيل. .

- أجل، الجبن والعار.

ووقف «جيل» مقدم الداوية صامتًا، الخيانة. . والجبن. . والعار يا لها من كلمات ثلاث يتردد صداها فى نفسه فيصير حنقه،

ويبعد به عن منطق العقل، ويجعله تحت سيطرة عاطفة مغرورة، وفروسية ساذجة، تأبى الاتهام، وترفض العار، ولعل دارتوا أدرك أثر كلماته المثيرة فى نفس جيل، فاستطرد قائلاً:

- إن الفرصة مواتية، ومن الحماقة ألا نجهز على العدو وننتهزها ونضرب ضربتنا الأخيرة.. وغداً يقال إن الأمير دارتوا والمقدم جيل فارس المعبد الأول قد حققا النصر المجيد، وقضيا على قوة المسلمين فى يوم الثلاثاء ٨ فبراير عام ١٢٥٠م.

فأطرق جيل هنيهة، ثم قال[١]:

- يا سيدى، لا يعرف الخوف سبيله إلىّ، أو إلى أى واحد من إخوانى، ولن نبقى فى المؤخرة، بل سنذهب معك ولكن أحب أن تعرف تماماً أننا نشك فى أننا سنرجع أبداً، وواصلوا زحفهم الأرعن صوب المنصورة.

•••

وأقبلت ياقوتة الغجرية مع رفاقها وقد بلغت طلائع الفرنجة أبواب المنصورة، وسرى النبأ الخطير إلى أهالى المنصورة وهو أن القائد فخر الدين قد لقى ربه، ولم تكد ياقوتة تسمع ذلك النبأ حتى طارت نفسها شعاعاً، وأصيبت بالذهول والارتياع، ثم انفجرت باكية، وأخذت تشد شعرها، وتعض على أناملها أسفاً وحسرة، وتدق رأسها بقبضتها، وخيّل إلى رفاقها أنها قد فقدت عقلها لهول الصدمة، وأخذت تصرخ:

(١) الشرق العربى بين شقى الرحى ص٧٦.

واكرباه . . الثأر . . الثأر . . اقتلونى . . مزقونى بسيوفكم . . أنا الآثمة . . أنا القاتلة .

كانت واقعة تحت وطأة الشعور بالذنب والخطيئة ؛ لأنها لو أبلغت فخر الدين عما ينتويه العدو بعد اكتشافه لمخاضة سلمون لما حدثت المفاجأة الرهيبة ولما مات فخر الدين القائد الهمام، ولما استطاع الفرنجة أن يلجوا أبواب المنصورة، ويهددوها بالخراب والدمار والقتل .

ليتها تركت معسكر الفرنجة عندما غادره مارسيل لما دوى النفير غير عابئة بالخطر ، أكانت تخاف الموت؟ إن الموت لأهون عليها من هذا الموقف المشين ، وذلك العذاب المرير الذى تقاسيه، بل ليتها قصدت من فورها معسكر المسلمين بعد أن أوصلها مارسيل خارج أرض موقعهم، أكانت تحرص على الراحة أو النوم ساعتين أو ثلاث؟ بئس النوم وبئست الراحة التى كلفتها ذلك الثمن الباهظ ، وجلبت على المسلمين الشر والوبال، وهددت مستقبل مدينتهم وأودت بقائدهم . . أكانت تتصور أن مثل هذا التأخير البسيط سوف يؤدى إلى هذه النتيجة البشعة؟ ليتها كانت تعلم ذلك ، إذن لأقدمت على أية مغامرة، وفعلت المستحيل حتى لا تترك نفسها تحت عبء اللوم والعار . . لكن ماذا يجدى الملام، وقد انتهى فخر الدين وعشرات غيره من جنود المسلمين ودقت أقدام الغزاة أرض المدينة الطاهرة؟

كيف تتصرف ياقوتة الآن؟

كيف تنتقم لفخر الدين؟

كيف تمسح خطيئتها، وتعفى على آثارها؟

أتحمل سيفها وتشارك الرجال فى الحرب؟

ليتها ترى لويس نفسه إذن لقذفت بنفسها فوقه، ولم تتركه إلا جثة هامدة . .

وانتابتها الحيرة والألم من جديد، وشعرت بحرج موقفها وفداحة كارثتها، وضعفها كأنثى، ومن ثم لم تجد ملجأ لها غير الدموع الغزار تسكبها، لعلها تخفف ما تحسه من آلام وعذاب، وهل الدموع سوى مطهر تغتسل فيه النفوس الطاهرة التى تنشد التوبة وتطمع فى الغفران؟

وما إن جففت دموعها حتى عاد إلى ذهنها ذلك الشيء المجهول . . الشيء الذى تفكر فيه، وتبحث عنه دون أن يعرفه أحد.

لكنها سرعان ما أبعد تلك الخواطر الذاتية التى تتعلق بآمالها الخاصة عن ذهنها . إن المعركة التى تدور رحاها على أبواب المنصورة، وتوشك أن تكتسح المدينة كلها أكبر من مطامعها وخصوصياتها الضيقة، ألا ترى النساء هائمات على وجوههن فى شوارع المدينة فى حزن وخوف؟

ألا ترى الأطفال يصرخون ويبكون ويتيهون كالقطعان الضالة؟

يا له من مصير مرعب، واقع رهيب ينسى الإنسان كل شيء فى الحياة حتى نفسه التى بين جنبيه! فكيف تستسلم ياقوتة لأحلامها

الصغيرة وتفكر فى ذلك الشىء المجهول الذى لا يعرفه أحد، وهى ابنة الكفاح، وربة المروءة والكرامة، وحاملة لواء الوطنية بين بنات جنسها؟

وسمعت ياقوتة هاتفًا يقول:

- يا أهالى المنصورة، يا جنود الله... الجهاد الجهاد.. لقد دخلت خيول الفرنجة شوارع المدينة.

فالتفتت إلى رفاقها الرجال قائلة:

- ألا تسمعون المنادى؟ اذهبوا إلى الموت.. يجب أن يرد الأعداء على أعقابهم مدحورين.

- نحن مكلفون بمرافقتك وحمايتك.

- أيها الأبله.. لتحمِ نفسك.. ولتحمِ أهل المدينة، اذهبوا.

- وأنت؟

- لا شأن لكم بى.. أنتم تجابهون العدو فى الشوارع، ونحن النساء نمطره بقذائفنا من فوق أسطح المنازل.

وفى هذه الأثناء تلقت القاهرة رسالة من المنصورة تقول:

هاجم العدو المنصورة.. الحرب قائمة.. القتال بين الفرنج والمسلمين شديد..

●●●

الفصل الثامن عشر

وبلغ عبد الأعلى بن سلمان بيته فى المنصورة، وكانت المدينة على أفواه بركان ينفجر، والارتباك يسودها، والغبار المثار يتصاعد فى سمائها والتوتر يرتسم على الوجوه وانتظار النتيجة الحاسمة يبعث القلق والتوجس فى النفوس.

وغمغم عبد الأعلى:

- والآن سوف أتركك يا عدنان.. ليس هناك من وقت أضيعه إلى جوارك والمعركة مشبوبة الأوار.

- أتذهب وحدك؟

- الألوف المؤلفة تملأ الشوارع.

- يا لك من ساذج..

فقال عبد الأعلى نافد الصبر:

- أوه.. لا مجال للنقاش.

إنك لا تفهمنى...

- ماذا تريد أن تقول باختصار؟

- أقول إننى سوف أخرج معك . .

فأجابه عبد الأعلى فى دهشة :

- هذا مستحيل .

- وما وجه الاستحالة يا عزيزى؟

- إنك لا تستطيع أن تنتصب فوق قدميك، ويبدو عليك الهزال والشحوب، إن إصرارك على الاشتراك فى المعركة بلاهة وغباء . . إنك تنتحر . .

- أنا حر، ولى أن أفعل ما أشاء .

- ويحك، لن يضير المعركة أن تنقص واحدًا . .

- المسألة حياة أو موت أيها الصديق، والمعركة فى حاجة إلى كل فرد ، ثم إن ذراعى اليسرى هى المصابة، ويمينى تستطيع أن تحرك السيف فى مهارة وخفة، وسأذهب رضيت أم لم ترضَ . .

فاختطف عبد الأعلى حبلاً، وأقبل على عدنان وهو يقول :

لسوف أقيد رجليك، وأسجنك هنا رغم أنفك، لم تعد تحسن التفكير، ويبدو أن الحمى قد أنقصت من قواك العقلية، معذرة أيها الصديق . . الوقت ضيق . .

قال ذلك، وهو يجذب ساقى صديقه فى عجلة، محاولاً ربطها، بينما ابتسم عدنان، وقال :

- أنت الذى فقدت عقلك، ماذا أفعل إذا دهم الفرنجة بيتك؟ أتظنهم سوف يفكون وثاقى أولاً ثم يقتلوننى بعد ذلك أم تراهم يختصرون الوقت ويريقون دمى فوق قيودى التى صنعتها أنت بيديك؟ ولما لم يلتفت عبد الأعلى إلى كلامه، قال عدنان فى لهجة صادقة:

- أقسم لك بالله العظيم إنى لن أدع فراشى حتى تعود . . فدعنى إذن بلا قيود . . فالتفت إليه عبد الأعلى وهو فى حيرة من أمره، ثم حملق فيه فترة، وهو لا يدرى هل يتركه أم يقيده، لكن نظرات عدنان كانت تنم عن الثقة والصدق والبراءة، ثم همس عبد الأعلى:

- أحق ما تقول؟

- أنا لا أحنث فى قسمى . .

- حسنًا . . من الأفضل أن أثق بك وأتركك بلا قيود . .

- وفقك الله أيها الصديق المخلص، إنى أكره القيود والسجون، فضحك عبد الأعلى قائلاً:

- ليس هناك وجه للمقارنة بينى وبين توران شاه . .

ثم انطلق بجواده لا يلوى على شىء، تاركًا عدنان وراءه . .

المدينة هائجة مائجة، والمتطوعون والعربان يفدون إلى المدينة، والمعركة آخذة فى الاشتداد والعنف، والمنصورة يوشك أن يكتسحها طوفان الدم، وعبد الأعلى يسرع نحو المعركة وهو لا

يفكر فى حياة أو موت، ليس فى رأسه غير صورة متخلية للمعركة، سيوف ورماح ودماء وأصوات مختلفة.

ونسى العدو فى غمرة اندفاعه وتهوره كتائب المماليك البحرية والبندقدارية التى تعسكر خارج المدينة بقيادة بيبرس الذى تولى منصب القيادة بعد استشهاد فخر الدين، ونسى أنه يهاجم المصريين فى شوارعهم وبيوتهم فى مراتع صباهم، ومرابع أحلامهم، وآمالهم، ونسى النيل ذلك العملاق العتيد الذى يحيط بالمدينة وكأنه ذراع قوية سمراء ذات زند مفتول.. لكنها أحلام المجد الزائف، وغرور المبادئ المصطنعة، تلك التى تفتح الطريق أمام التائهين كى تمعن لهم فى ضلالهم وغرورهم.

وإبان احتدام المعركة بين الشعب والفرنجة، ظهرت طلائع المماليك وعلى رأسهم بيبرس وانقضوا على قوات العدو المبعثرة هنا وهناك، والتحموا معهم فى صراع رهيب، وبدا على دارتوا شقيق الملك لويس أنه مصر على النصر، بالغ غايته مهما أتت الإمدادات والمساعدات للمدينة المناضلة، ومع ذلك فقد قال مارسيل للجندى الذى بجواره:

-إنها النهاية أيها الصديق..

- أجل نهاية المسلمين يا مارسيل.

-أيها الوغد.. نهايتنا نحن.. لكأنى أرى بعينى رأسى فوهة القبر الكبير تنفتح أمامنا.

- إنك تهذى يا مارسيل، نحن على وشك احتلال القصر السلطانى.

وكان دارتوا متعجلاً، يريد أن يحتل القصر السلطانى ويرفع من فوقه الأعلام الصليبية، فيكون بذلك فاتح المنصورة وهازم المصريين، والسابق إلى المجد والنصر.

وماج القصر بالهرج والمرج، وأخذت الجوارى ينطلقن فى أروقته صارخات باكيات وأخذت شجرة الدر تتابع المعركة بقلب خافق واجب، وتشير بيدها مشجعة دون أن تخاف سهمًا قد ينطلق إليها، أو قذيفة تقضى على حياتها، وبين آن وآخر تبعث برأيها وتوجيهاتها إلى الرجال فى المعركة.

كانت تفكر فيما سيؤول إليه أمر بلادها إذا أمسك بخناقها الغزاة المعتدون، وتفكر فى أمر نفسها هى الأخرى، أمن المعقول أن يزول هذا الملك العظيم، وتستعبد هذه البلاد الحرة، وتساق شجرة الدر بين السبايا لتركع أمام مرجريت، وتقبل موطئ قدميها؟ كلا لن يحدث ذلك، فلا كانت الحياة، ولا كان الرضا بالبقاء فى أسر العبودية المخيف.

واقترب دراتوا وفرسانه من أسوار القصر، فصرخت إحدى الجوارى مرتاعة:

- انظرى يا مولاتى، إنهم كالوحوش الضارية.. سوف يذبحوننا كما تذبح الشياه إذا تمكنوا منا.

فرمقتها شجرة الدر نظرات نارية عاتبة، وقالت :

- اغربى عن وجهى أيتها الرعديدة، اذهبى وابحثى لك عن قدر أو حجر أو أى شىء تقذفين به هؤلاء الأنجاس.

وحينما وقفت الفتاة مبهوتة . . دفعتها شجرة الدر قائلة :

- ماذا تنتظرين؟

وسالت الدماء غزيرة فى ساحة القصر السلطانى، وتناثرت، الأشلاء والجثث فى أرض الميدان، كانت الجياد تدوسها، وكان المتحاربون يطؤونها بأقدامهم فى غمرة الصراع المريرة. يا للبشاعة!

أية حماقة تلك التى دعت بهؤلاء المجانين كى يقبلوا من بلادهم البعيدة ليسفكوا وتسفك دماؤهم، وليقيموا من أجسادهم طريقًا داميًا كى يسير فيه الطغاة والمتهوسون نحو آمال هى السراب بعينه؟

وأخذت موجات الفرنجة وهجماتهم تنكسر لدى أسوار القصر، وتلفتوا حولهم فرأوا المماليك من أمامهم، والشعب ينزل عليهم من كل صوب والمعركة لم تزل محتدمة الأوار، وقائدهم دراتوا لم يزل يكافح مصرًا على النصر، يتألق أمام عينيه ذلك الأمل الحلو، ويجذبه إليه جذبًا.

أما عبد الأعلى بن سلمان فقد كان يعمل سيفه فى رقاب الفرنجة رائحًا وغاديًا، غير مكترث بالجراح السطحية الكثيرة التى تثوى فى

مختلف أنحاء جسده، أية قوة سحرية تلك التى لا تجعله يحس بالآلام، أو يستشعر الضعف والوهن، والناس يتساقطون صرعى ومع ذلك فهو لايفكر فى شىء اسمه الخوف أو التراجع؟ لكأن هناك خيوطًا سحرية شفافة تربطه بهذه الكتل التى تقف للغزاة بالمرصاد، وكأن هناك تيارًا غامضًا يسرى فى هذه الخطوط فيمد الجميع بقوة إلهية خارقة.

وسمع عبد الأعلى صوتًا يعرفه تمام المعرفة يهتف فى حماس:

- تقدم إننى وراءك.

ونظر عبد الأعلى خلفه وما إن وقعت عيناه على صاحب الصوت حتى صرخ دون وعى:

- عدنان.

- أجل.. لقد حنثت بقسمى.. المرة الوحيدة.. معذرة، سوف أكفر عن ذلك بالصوم ثلاثة أيام، وإذا لم أتمكن من ذلك فسأقدم نفسى قربانًا لله.. ألا يكفى؟

ولم يجد عبد الأعلى فائدة تذكر فى معاودة اللوم والعتاب فى وقت تعانق فيه السيوف ويحوم الموت على الرءوس، وحينما نظر فى وجه عدنان مرة ثانية أدهشه أن يراه على هذه الحال من الصحة والنشاط.. أية معجزة بعثت فيه الحياة وأشعلت فى كيانه الثورة والانطلاقة من جديد؟

لقد جلس عدنان وحده فى الحجرة بعد أن خرج عبد الأعلى إلى المعركة، وتلفت حوله فلم يجد غير الفراغ والوحشة، وتذكر على الفور ليالى الوحدة والحرمان فى زنزانته، وخيل إليه أن هذه الزنزانة قد انتقلت برمتها إليه فى بيت صديقه، وتنهد فى حسرة لكنه حاول أن ينأى بنفسه عن هذه التخيلات السوداء التى لا تحمل إليه سوى مرارة الذكرى، وغصة الأحزان، ولم يكد يخلص من ذلك حتى تناهى إلى سمعه صرخات مختلفة مستغيثة، فغمغم:

- يا للمساكين . . أيتها الجماهير المظلومة . . لك الله.

وخيل إليه أنه يسمع صوتًا يصرخ فى أعماقه.

- ولها أنت أيضًا يا عدنان.

- ولكن كيف؟ إننى عاجز عن أحرك ساعدى.

- لتخرج أيها الرجل المؤمن . . إن لم تستطع أن تفعل شيئًا . . فلتقف على جانب الطريق لتقول كلمة تشجيع، أو عبارة عزاء، لتفعل أى شىء . . حتى ولو بصقت فى وجه عدو.

هذا ما كان عدنان يحدث به نفسه، ولسبب يعلمه الله عادت إليه ذكرى أبيه الشهيد، الأب الذى لم تمهله الأقدار كى يراه وينعم بعطفه وحنانه، لا . . لا . . ليس أبوه وحده، بل مئات غيره راحوا ضحية العدوان فى الأمس، تمامًا مثلما يحدث اليوم، تذكر أمه بشعرها الأشيب، وعودها الضامر الذى أحنته السنون، وذكر

أمهات كثيرات غيرها، ترى ماذا يفعلن إذا فوجئن بشرذمة من الفرنجة المتوحشين، يدهمونهن فى عقر ديارهن؟

والمنصورة بيوتها ودساكرها ونيلها وبساتينها الخضراء ومساجدها الجليلة، أتصبح مسرحًا للأوغاد، ومأوى للغزاة الذين لا يرحمون؟

وجرت الدماء حارة ساخنة فى عروق عدنان . .

وأحس بكيانه كله يلتهب كوقدة من الجمر.

وسرعان ما اختفى جموده وشحوبه، فهب من فراشه غاضبًا ثائرًا ، وأخذ يهز ساعده الجريح فلم يحس فيه بغير ألم خفيف، ثم اختطف سيفه المعلق إلى جواره، فلم يشعر بثقله، كان فى يده كريشة خفيفة، وخيل إليه على الفور أن ينابيع رقراقة من السعادة والثقة والإيمان تنساب بين حناياه، فابتسم، وقال:

- إلى المعركة.

وعندما تذكر ذلك القسم الذى آلى به على نفسه ألا يغادر فراشه قهقه ساخرًا:

- أيحق لمسلم أن يقسم على ألا يقرب الصلاة؟ بالطبع كلا . . إنه قسم باطل من أساسه.

وأسرع إلى جواده ليلحق بعبد الأعلى، ويلتقى به على الصورة التى سبقت.

***

الفصل التاسع عشر

كان القتال صورة مروعة لملحمة هائلة، اشتبكت فيها الأجساد البشرية وهى تتبادل الطعنات بالسواطير والقضبان والسيوف والرماح، مختلطة بعضها ببعض، فليس هناك إلا ضربات ذات اليمين وذات الشمال، على الرءوس وفى الصدور وخلف الظهور، صيحات تزأر، وأنات تزفر، وكأس المنايا على شفاه الصرعى تدور . .

واقترب المقدم «جيل» قائد فرسان الداوية من الأمير دارتوا الذى نال منه التعب كل منال، وقال :

- أرأيت أيها الأمير كيف خططنا لأنفسنا قبراً للعدو؟ رمقه دارتوا بنظرة غامضة، وقال:

- إنك تخرف، لم يزل زمام الموقف فى يدنا . .

فمسح المقدم «جيل» بعض الدماء التى تنزف من إحدى أذنيه- وقد أصيب بضربة فيها أثناء المعركة، ثم غمغم:

- انظر . . إننا محاطون بهم من كل جانب .

- أنسيت أننا ننازلهم فى عقر دارهم؟ .

- كلا أيها الأمير . . أعلم ذلك . . موقف لا نحسد عليه، لقد كان الملك أبعد نظراً حينما . .

فقاطعه دارتوا فى حدة :

- كف عن هذا الهراء، إن كفتنا هى الراجحة، أم تراك قد خارت قواك بعد أن فقدت أذنك . .

فسكت «جيل» ولم ينطق، إن الأمير لا يحكم عقله ، ولا يريد حتى فى أحرج الأوقات أن يعترف بخطئه، حتى يمكن النظر فى الأمر من جديد، ومحاولة إنقاذ الموقف، لقد تراجعوا بعيداً عن القصر السلطانى أمام مقاومة المصريين الشديدة، وهجماتهم المتلاحقة، وحينما نظروا إلى أبواب المنصورة وجدوها مغلقة فى وجوههم ووجدوا أنفسهم مرغمين على التقهقر إلى الأزقة والشوارع فى قلب المدينة نفسها، ونظر جيل إلى فرسانه الذين تناقص عددهم إلى درجة مريعة، ثم لاحظ الإنهاك الشديد الذى يبدو على وجوههم الساخطة الخائفة، ثم تحسس أذنه التى غدت كالحفرة القذرة فى جانب وجهه، فغمغم «يا للمصير التعس!»، وفى هذه الأثناء سمع دارتوا يقول ثائراً :

- لِمَ لم يعمل الملك على إرسال نجدات لنا؟

فقال جيل شامتًا :

- الملك لا يعلم أيها الأمير أننا خالفنا أوامره وهاجمنا المنصورة .

- ألا يصل إلى سمعه ضجيج هذه المعركة الرهيبة؟

- من يدرى لعله الآن منهمك فى عبور المخاضة مع بقية الجنود، دون أن يخطر على باله أننا فى مأزق حرج . .

وصمت دارتوا برهة ثم قال:

- إننا نعيش فى خضم اللهيب الذى أشعلته امرأة . .

- مَنْ نقصد؟

- «شجرة الدر» تلك المرأة العجيبة، إن مصر بلا سلطان، ومع ذلك فإن هذه المرأة تقوم مقام عشرة سلاطين . .

فأدرك جيل ما فى كلام دارتوا من سطحية وسذاجة، ولهذا قال:

- ليست شجرة الدر وحدها هى التى تؤجج المعركة، انظر يا مولاى الأمير . . ألا ترى هذا الخليط من لابسى الجلابيب والقفاطين وزى الحرب؟ هو هذا الشعب الذى يحاربنا بالسواطير والعصى الغليظة والمناجل والفئوس . . هو الذى أوقف تقدمنا . . لا شجرة الدر؛ لأنه يحميها هى الأخرى كما يحمى أرضه ونفسه ومثله العليا . .

كان دارتوا لا يفكر إلا فى الملوك والأمراء كحماة للأوطان، وجالبين للنصر؛ لأنه أمير وابن ملك، وكان جيل يفكر بعقلية المجرب الواعى الذى يفهم كنه المعارك، وحقيقة الانتصارات، ليته

كان لهذا الذكاء وهذه الفراسة من قبل، إذن لقال لدارتوا حين حرضه على الاندفاع إلى المنصورة: اذهب إلى الجحيم ولن آتى معك، لكن الأمر قد انتهى، وما عليه إلا أن يدافع الآن عن نفسه، ويتحين فرصة مناسبة للهرب، ويولى الأدبار وليترك دارتوا ليجنى ثمرة حمقه وغروره.

●●●

كانت ياقوتة الغجرية تقف فى إحدى الشرفات مع خليط من النسوة وأخذت ترقب المعركة بعين يقظة وأعصاب هائجة متوترة، ومن آن لآخر تخرج سهمًا من كنانتها ثم تضعه فى القوس وتطلقه على أحد الجنود الفرنجة فى الشارع، وحينما رأت النسوة يقفن دون عمل سوى الصياح والبكاء، وأهابت بهن جميعًا أن يلجأن إلى سقف البيت الذى يقفن به، ثم يحاولن هدم ذلك السياج المنخفض حول السطح وينتزعن لبناته وأحجاره، كى يقذفن بها العدو، ويشاركن أزواجهن وأبناءهن فى المعركة، ومع ذلك فقد كانت تعود إلى تذكر ما فات، والإهمال الذى ارتكبته فى البارحة، ومصرع فخر الدين، ومداهمة العدو للمنصورة على هذه الصورة البشعة، فتنفلت الدموع من بين أهدابها حتى تغص بالبكاء، ويختلج جسدها، لكنها تعود وتتمالك نفسها، وتستأنف توجيه السهام والقذف بالأحجار فى حقد وغيظ ضاغطة على أسنانها محاولة أن تخنق صرخات الإثم والتأنيب التى تنهش فى ضميرها الحى المؤمن.

وكم كانت دهشتها حينما رأت الأمير دارتوا يتراجع مع كوكبة من فرسانه ونبلائه، ويتخذ لنفسه موقعًا تحت شرفتها، لكنها لم تكن تعرف شيئًا عن المقدم «جيل» الذى يمتطى جواده مع بعض فرسان المعبد بالقرب من الأمير . .

لم تصدق عينيها فى بادئ الأمر، لكنها أعادت النظر إلى الأمير من بعيد فتأكدت أنه هو، هو بعينه دارتوا الذى قرأت له الكف ذات يوم فسخر منها، ومضى عنها شامخًا بأنفه مصعرًا خده، وعلى الفور صاحت وهى تشير نحوه كى تلفت نظر الجنود المسلمين إليه :

- أجهزوا عليه . . إنه شقيق الملك لويس . . .

وتلقفت الجنود الصيحة منها فى استغراب ودون تمعن، لقد حسبوها تقول إن هذا هو الملك لويس نفسه، إذ إن نصف عبارتها قد ضاع فى خضم الضجيج والغبار المثار، وتناقلت الأفواه اسم الملك لويس من صف لآخر، فاتجهت الأنظار إليه، وأحاط به المصريون من كل مكان، وتلفت دارتوا حوله، فوجد السيوف تلمع فى ثورة وتحدٍّ، ولمح العيون تبرق فى إصرار وحقد مقدس وأخذ يدافع هو ومن معه مدافعة اليائسين . . واختطف دارتوا نظرة عجلى إلى الشرفة، فوجدها . . إنها تلك الغجرية، ولم يفت ذلك «جيل» هو الآخر فقد عرفها على الفور، وصرخ دارتوا فى غيظ :

- أنت أيتها الخبيثة المخادعة؟

لكن صيحته ذابت ولم تصل إلى سمائها، وتذكر نبوءتها الساذجة حينما قالت له بالأمس القريب:

قضاء وقدر

وعجيب العبر

الحق أقول

أترى حم القضاء، وحان المصير، وكتب على دارتوا أن يسيل دمه الملكى الأزرق ليختلط بهذا التراب الأسود، ويصبح أوحالاً تلتصق بأحذية الجنود وحوافر الخيل؟

- أيكون هجومى على المنصورة حماقة من الحماقات الكبرى، ودرسًا قاسيًا لا ينسى، وعبرة لمن يأتون؟

أتمتد هذه الأيدى السوداء العجفاء إلى عنقى، ويطبق علىّ هؤلاء الفلاحون بسحناتهم المغبرة، وتلامس هلاهيلهم الممزقة، هذه الملابس الحريرية والدروع المطعمة بالأحجار الكريمة.. ثم أموت بين أياديهم، وتوضع أنفى فى الرغام؟؟

وانتفض دارتوا كمن لدغته عقرب، وصاح بجيل الذى يكافح عن نفسه فى استماتة:

- إلى القصر السلطانى يا جيل...

ولم يسمع جيل شيئًا، ولو سمع ما قاله دارتوا لقهقه ساخرًا، ولأيقن أن الأمير دارتوا قد أصيب بمس الجنون.

وسمع دارتوا اسم لويس يتردد فى صفوف المسلمين، فخيل إليه أن أخاه الملك ربما يكون قد أسرع لنجدته وقد حمى الوطيس، وضاق الخناق واقترب الموت، لكنه لم يجد شيئًا . . فقط تلك الجموع المتحفزة التى تلح فى طلبه، وتحاصر كوكبته من الفرسان . . .

●●●

وساد النسوة اللاتى فى الشرفة شيء من الارتباك والاضطراب حينما أقبلت إحداهن مسرعة من الدور الأرضى ، وكانت تقول :

- بعض الفرنجة دخلوا المنزل، ثم أغلقوا الباب عليهم، ومعهم سيوفهم . . سوف يقتلوننا لا محالة، وليس بيننا رجل واحد للأسف .

فدفعتها ياقوتة الغجرية، ثم شقت لنفسها طريقًا بين النسوة، وقالت :

- لقد هربوا من جحيم المعركة إنهم أجبن من أن يفعلوا بنا ذلك . .

ثم أسرعت إلى الدور الأرضى ومن خلفها عدد منهن . .

وما إن رآها الجنود الفرنجة الذين يلهثون من شدة التعب ويحاولون أن يتماسكوا حتى هتفوا فى صوت واحد :

- الغجرية . . . ؟

وكانوا مجموعة من النبلاء الفرنسيين ذوى المكانة الكبيرة، وكان هذا واضحًا من ملابسهم الثمينة وحركاتهم المعروفة

وطريقتهم فى الكلام، ولم تعطهم ياقوتة الفرصة كى يستطردوا فى الحديث أو يفعلوا شيئًا، لكنها فاجأتهم قائلة :

- سلموا سلاحكم، تضمنوا حياتكم أيها السادة. . .

فمدوا أيديهم بالسيوف فى استسلام، لكنها قالت :

- كلا . . اقذفوا بها بعيدًا عنكم . .

ففعلوا . . .

وبينما كانت ياقوتة تجمع السلاح، وتنقله بعيدًا، همس أحد النبلاء لرفيقه قائلاً :

- لم أكن أصدق أن تكون هذه الغجرية عينًا علينا . .

- ولا أنا . .

- يا لها من بارعة ! !

ثم قطع حديثه، وتوجه بالكلام إلى ياقوتة قائلاً :

- إننا نسلم أنفسنا كأسرى .

ففهمت ما يهدفون إليه ، كانوا يريدون أن يأمنوا على أنفسهم وأن تكتب لهم الحياة من جديد، وهذا خير لهم من أن يصرعوا فى معركة يائسة كالتى تدور رحاها الآن، ومن يدرى قد ينتصر لويس غدًا أو بعد غد، وقد تأتى النجدات فى أى وقت من فرنجة الشام ومن أوربا، فيطلق سراحهم من جديد، ولهذا آثروا أن يستسلموا، ويقضوا أيامهم فى الأسر، وهذا أفضل بكثير من أن يموتوا . .

وكأن ياقوتة فهمت ما يعتمل فى نفوسهم، فقالت:

- نحن لا نقتل أسرانا ولا نغدر بهم . . .

ثم ساقتهم إلى حجرة منعزلة فى البيت، وأحكمت رتاجها، وأقامت بعض رفيقاتها حارسات عليها، وسارعت بالعودة إلى الشرفة كى ترقب المعركة، وتعرف المصير الذى ينتظر دارتوا شقيق الملك لويس . . .

●●●

وصعق دارتوا حينما سمع أحد الجنود- وهو مارسيل- يصيح قائلاً:

- النجاة . . النجاة . .

ثم وكز جواده، وانطلق هاربًا من ميدان المعركة، وتبعه فئة قليلة من الجنود الذين تناقص عددهم لدرجة كبيرة، ونظر دارتوا إليهم وهم يولون الأدبار، وحدثته نفسه أن يمضى على أثرهم، إن الحياة جميلة ورائعة، وهو شقيق الملك وتجرى بين يديه أنهار النعيم والهناء . . وهذا ما يجعل الحياة بالنسبة له أشد جاذبية، وأكثر متاعًا، وإن كانت أحلام المجد، ونوازع الغرور قد أعمته فاندفع بلا تدبر، وألقى بنفسه فى معمعات هذه المعركة الرهيبة، فإن اقتراب الموت، وإحداق الخطر به قد كشفا اللثام عن هذه الأوهام، وأبانت عن تلك النوازع، فأصبحت عارية دون زيف أو خداع، وتلفت حوله، باحثًا عن منفذ يخرج منه، لكن المسلمين كانوا قد أحاطوا به

إحاطة السوار بالمعصم، وظنًا منهم أنه هو الملك لويس، فلما نظر دارتوا خلف مارسيل ورفاقه وغمغم: «أيها الأوغاد، أتفرون وتتركون أميركم وقائدكم؟؟ تعسًا لكم، كل يبحث عن النجاة بجلده، وقد كان دارتوا صادقًا تمام الصدق فيما قال؛ لأن عنصر التمزق كان جليًا بين قوات العدو، وكان افتقادهم لمعنى الوحدة نذير شر لهم فى ذلك اليوم المشهود، غير أن الأمير رأى «جيل» ومعه بقية من فرسان المعبد يناضلون فى استماتة اليائسين، فواصل هو الآخر نضاله، لكن الرعب كان قد استولى عليه، فذابت شجاعته، وخارت عزيمته، وتحولت روحه المعنوية العالية إلى حسرة وضياع وأسف، ولم يدرِ من أين أتته الطعنة المحكمة التى أصابت عنقه، فتهاوى من فوق جواده ككتلة من الشقاء والتعاسة، وتلوثت ملابسه الحريرية الزاهية بالدم والتراب، ولم يكد يرتطم بالأرض حتى سمع أحدهم يقول:

- مرحى... مرحى... لقد أصبت الهدف يا عدنان رغم أنك تحارب بذراع واحدة.

ولم يكن صاحب هذا الصوت سوى عبد الأعلى بن سلمان وإلى جواره صاح شيخ معمم فى حماس وسعادة:

- ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

وترددت بين صفوف المسلمين صيحات الفرح والابتهاج، وسمع الجميع بمقتل لويس- وهو فى الحقيقة دارتوا- وعلى الأثر

أعملوا السيوف فى بقية الكوكبة المحيطة بالأمير القتيل، وسرعان ما أقبل القائد بيبرس- ومعه مماليكه- الذين أبلوا بلاء حسنًا فى ذلك اليوم، وانحنى بيبرس فوق دارتوا ونزع عنه درعه وقلنسوته وبعض ملابسه، وصاح بين المسلمين.

- أجهزوا عليهم.. ها هى ملابس مليكهم.. قتلنا الطاغية..

وفتح دارتوا عينيه للمرة الأخيرة، ولمح المتجمعين حوله كما لمح أيضًا المقدم «جيل» وهو يلوذ بالفرار منتهزًا هذه الفرصة وغمغم دارتوا بصوت خافت: يا لها من نهاية!! ثم أسلم الروح قبل أن يجهز عليه أحد..

ولم تلقَ ياقوتة الغجرية كبير اهتمام لإحدى رفيقاتها وهى تقول فى زهو واستبشار:

- انظرى يا أختاه إلى ذلك الرجل الذى يربط ذراعًا جريحة ويعلقها فى عنقه، ويحارب بيد واحدة.. إنه هو الذى قتل قائد الأعداء...

وحينما أجهز المسلمون على البقية الباقية من جنود الأعداء أسرعوا بمطاردة الهاربين نحو البحر الصغير، وكان الملك لويس فى هذه الأثناء ينقل بقية قواته من الضفة الشمالية إلى الضفة الجنوبية غير عالم بالكارثة البشعة التى حاقت بجيشه وبأخيه، وكم كانت دهشته حينما بصر بقوات المسلمين تزحف نحوه، فأين ذهبت قواته إذن؟؟ ولم يطل به التساؤل فقد وصل بعض الرفاق الهاربين، وفى الوقت نفسه التحم الجيشان فى معركة قصيرة تراجع بعدها

المصريون إلى المنصورة، ليستعدوا ليوم آخر، بينما وقف الملك لويس حزينًا باكيًا، يلعق الجراح الغائرة التى أصابت جيشه.

وغمغم وقد غامت عيناه بالدموع:

- وا أسفاه.. أحقًا مات دارتوا؟ أهكذا ينتهى أمره، ولا نستطيع حتى الحصول على جثته؟ ما أقسى أن يموت دارتوا غريبًا.. بعيدًا.. ويتوسد التراب، ويلقى به فى حفرة قذرة دون مراسيم، وبغير صلوات أو تراتيل.. يا له من ثمن غالٍ دفعناه بلا طائل.

ماذا لو أطاع أمرى وانتظر؟؟ ماذا..؟

لكن لن يجدى كل ذلك، لقد مات وانتهى الأمر..

وجفف لويس دموعه، واستدرك مغمغمًا:

- كلا.. لن ينتهى الأمر، بل سنثأر لدمه فى عنف وغلظة، فها هى النجدات تترى، وفرنجة الشام، والآلاف من جنود أوربا فى الطريق..

وشعر لويس أنه قد أوشك على الانهيار، وأن قلبه الحديدى وعزيمته الراسخة وإيمانه القوى، كلها فى سبيلها إلى التخاذل ؟؟

فحاول أن يتماسك، ويحبس دموعه من أن تنهمر، ويكبت مشاعره من أن تكشف عن شدة حزنه، وعميق أساه، فالتفت إلى الجندى الذى حمل إليه نبأ مصرع أخيه قائلاً:

- ولم تركه وحده؟

- كانت الكارثة يا مولاى أقوى من أن ندفعها، والموت ينصب

علينا من كل مكان، من الأسطح والنوافذ والأبواب، ومن أمامنا ومن خلفنا، وكان من الممكن يامولاى أن أبقى وألقى منيتى، لكن أية حماقة كنت سأرتكبها لو فعلت ذلك!!

وفى هذه الكلمات الموجزة، أعطى الجندى صورة دقيقة للملحمة الهائلة، التى راح ضحيتها ما يقرب من ألف وخمسمائة جندى من الفرنجة بين قتيل وأسير، فلم يجد الملك ما يعلق به، فآثر الصمت.

●●●

كان عبد الأعلى يتجول فى شوارع المنصورة وأمام القصر السلطانى بعد أن هدأت العاصفة، وانجلى غبار المعركة، وكان إلى جواره عدنان بن المنذر، وكانت جثث القتلى ملقاة هنا وهناك، والدماء تصبغ الأرض بلونها القاتم، وتثير الاشمئزاز والأسف، وعلى وجوه الصرعى من الفرنجة أمارات السخط والارتياع مطبوعة على ملامحهم، لكأنما كان كل واحد منهم على وشك أن يصرخ مستنجداً مستجيراً، حتى بعض الجياد هى الأخرى لم تسلم من الموت أو الإصابة، فخرت صريعة فاقدة الحركة، وبعضها بقى يئن ويتوجع، لم تكن مأساة الإنسان وحدة بل والحيوان أيضًا، وقال عدنان:

- إنى لأتساءل دائمًا: أما لهذا الحروب من نهاية؟؟ ألا يترك الإنسان أخاه الإنسان يعيش فى دعة وسلام؟

- إنها فلسفة مستمدة مما تعرضت له من نكبات وما حاق بك من ظلم، لكن ألم تفكر فى ذلك وأنت تطعن دارتوا الذى حسبناه لويس؟

فأطرق عدنان هنيهة ثم قال :

- فى الحرب أيها الصديق يفكر الإنسان بسيفه . . بيده . .

- وبعقله أيضًا . .

- هذا ما أشك فيه ، فالبشر فى معاركهم ينقلبون إلى وحوش ، بل إن الوحوش ذات الفصيلة الواحدة قلما تفترس بعضنا ، بل تفترس فصائل غيرها ، والإنسان يفترس الإنسان . . ومع ذلك فقد أدرت المسألة فى رأسى ببساطة . . أعنى أننى معتد عليه وأدافع عن كيانى وأرضى وعقيدتى . . فالأعداء هم الذين أرغمونى على ذلك فأى ذنب جنيته؟؟

فأجاب عبد الأعلى دون اكتراث :

- لا تقلق بالك كثيراً ، إن اقتران الخير بالشر طبيعة الوجود .

فقال عدنان فى إصرار :

- ولِمَ لا يسود الخير؟؟

وقبل أن يجيبه عبد الأعلى لمحا طابور الأسرى الفرنج يسير فى إنهاك وانهيار ، تشيع موكبه الحزين الذلة والانكسار . . .

ومن خلف الطابور ظهر بيبرس القائد ، وكان يقول لمن حوله :

- أزيلوا هذه الجثث من الشوارع قبل أن تجيف . . إن رائحة الدم تنطلق منفرة فى كل مكان . . .

●●●

الفصل العشرون

كانت ياقوتة الغجرية فى طريقها إلى معسكر الفرنجة تفكر فى الخطوات التالية، وتعمل فكرها بإمعان كى تصل بأسهل الطرق وأيسرها إلى أدق الأسرار الحربية وأهمها، كانت تريد أن تفكر - كما قلنا- عن الإهمال الذى بدر منها بالأمس القريب وتضاعف نضالها؛ لأن فقد فخر الدين كان خسارة كبيرة رغم الانتقام له والثأر من قاتليه.

ومن حسن حظ ياقوتة الغجرية أن مارسيل لم يكن ضمن قتلى الفرنج أو أسراهم فى ذلك اليوم، فقد استطاع أن ينجو بنفسه والمعركة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وعاد سالمًا إلى معسكره اللهم إلا بعض الجراح البسيطة التى أصابت جسده.

وعاد إلى ذهنها ذلك الشىء المجهول الذى كانت تجدُّ فى البحث عنه، والتفكير فيه، إنها تحاول أن تبعده عن ذهنها، وخاصة فى هذه الأوقات الدقيقة وإزاء هذه المهام الجسام، لكنه يلح عليها، ويترصد لها كل طريق، ويطرق قلبها فى اليقظة والمنام، ولهذا

تنهدت ياقوتة الغجرية فى ألم ، وضغطت على أسنانها فى إصرار ، محاولة جهد الطاقة أن تهرب بنفسها من هذه الخواطر الملحة وذلك الشيء المجهول .

وكان لموت دارتوا وفقدان ما يقرب من ألف وخمسمائة من الصليبيين دفعة واحدة أثر عميق فى نفوس الفرنجة ، فأصيبوا بما يشبه الذهول واليأس ، لولا النجدات التى تتلاحق أفواجها عليهم ، ظهور الملك لويس ومن معه بمظهر الواثقين من النصر ، المصرين على مواصلة الكفاح ؛ لأن الفرصة لم تزل باقية ، فهزيمتهم فى إحدى المعارك ليس معناها انتهاء الحرب ، واليأس المقيم .

ولم يكف المصريون عن مواصلة هجماتهم من يوم لآخر فى شهر فبراير بعد انتصارهم الرائع فى معركة يوم الثلاثاء بالمنصورة ، واستطاعوا بذلك أن يرهقوا أعصاب العدو ، ويكبدوه بعض الخسائر ، غير أن العدو قد أكمل عبوره لمخاضة سلمون ، واتخذ موقعًا حصينًا ، وأعد العدة الكاملة لمواصلة الزحف ، والثأر لدارتوا ومن معه .

كانت ياقوتة تذكر كل هذه الحقائق مجتمعة وهى تدلف إلى المعسكر ، وكان مارسيل جالسًا فى خيمته يشعر بمزيد من الملل والضيق والحزن لا بالنسبة لما حدث للجنود فى الأيام الأخيرة فحسب ، بل بالنسبة لأمر مهم آخر أزعجه وأورثه همّاً على همٍّ ، وجعله يفقد الثقة بكل شيء بعد أن فقدها بنفسه ، وغمغم مارسيل :

- لقد انتظرتها طويلاً لكنها لم تعد، أتراها تعود اليوم؟؟

وفى الوقت نفسه كانت ياقوتة تتخذ طريقها صوب خيمته، لكنها فوجئت بكوكبة من الجنود يطبقون عليها، ويوثقونها بالقيود ويدفعونها فى مهانة إلى الداخل، وهى لا تدرى من أمرها شيئًا، وكم كانت دهشتها حينما سمعت أحد الجنود يقول:

- لقد مشيت إلى حتفك بنفسك أيتها الجاسوسة، لترقصى اليوم ولتغنى كما تشائين، فلن تطلع عليك شمس الغد، إن إعدامك حرقًا هو أبسط ما تستحقينه، ليرحمك الله يا «دى سناك» الطيب لولاك لظل أمر هذه الأفعى مطويًا عنا إلى الأبد، ولظلت تخدعنا برقصاتها وأغانيها إلى ما شاء الله.

وكاد قلب ياقوتة يكف عن الخفقان وهى تسمع هذه الكلمات، وأدركت على الفور كل ما حدث، لا بد وأن «دى سناك» الذى يتحدثون عنه قد لمحها وهى واقفة بالشرفة يوم المعركة الكبرى، أو لعله سمعها وهى تشير إلى الأمير دارتوا، ثم أفشى سرها إلى الفرنجة بعد ذلك..

يا لها من حمقاء!! كيف فاتها ذلك؟؟ ولم صعدت إلى الشرفة فى ذلك اليوم؟ أما كان من الأوفق أن تبتعد عن عيون الفرنجة حتى تظل حافظة لسرها، قائمة بالمهمة المنوطة بها، مؤدية دورها الخطير فى الكفاح المرير؟؟

هذا ما كان يجب أن تفعله، لكن موت فخر الدين، وزحف

الأعداء إلى المنصورة قد أفقدها صوابها، وجعلها تتصرف بلا حيطة أو حذر.

ثم لماذا لم تفكر فى هذا الاحتمال قبل الآن؟

أصحيح أنهم قد أصدروا حكمهم عليها بالإعدام؟

أهذه هى نهاية المطاف، ومنتهى الآمال؟

أتموت هكذا سريعًا دون سابق إنذار، ولا تحصل على ذلك الشىء المجهول الذى تبحث عنه وتحلم به؟

ألن ترى أعلام النصر وهى ترفرف على البلاد بعد أن يدحر هذا العدو الغادر؟

ألن تستمتع بعد ذلك بحياتها وشبابها وآمالها؟

عندئذ وكزها أحد الجنود بمؤخر سيفه وكزة آلمتها، وقال:

- إن صمتك لأكبر دليل على خيانتك، لن يجديك مارسيل اليوم نفعًا..

فصرخت فى ثورة مفتعلة:

- بماذا تهرفون؟؟ لا أكاد أفهم شيئًا.

فابتسم الجندى ابتسامة ساخرة، وقال:

- أما نحن فنفهم كل شىء..

وحاولت ياقوتة أن تكشف لهم عن ذراعها الموثوقة، وهى تقول:

- أيها الأوغاد، أنسيتم أننى مسيحية مثلكم؟

وحملق الجنود فى الوشم الأخضر الصليبى المرسوم على ذراعها فى دهشة، ولم يدر بذهن أحد منهم أنه قد يكون حيلة بارعة لجاسوسة ذكية، ومع ذلك فقد ذهبوا بها إلى الملك لويس ونفضوا يدهم من الأمر كلية وانصرفوا تاركيها أمام الملك والبطريرك «روبرت».

وأنكرت ياقوتة كل ما وجه إليها من اتهام، وتنصلت من صفة الجاسوسية التى يريدون أن يلصقوها بها، وعززت ذلك كله بالدموع الغزار التى أجادت ترك العنان لها والتقت نظرات الملك بنظرات روبرت، وكأنه يستشيره فيما يجب أن يعمله، فما كان من روبرت إلا أن قال:

-لكن «دى سناك» لا يكذب يا فتاة.

- أنا لا أتهمه بالكذب يا أبتاه، لكن أقول إنه أخطأ، قد تكون هناك من تشبهنى، أقسم إنى لم أنزل المنصورة منذ شهور، ولم أراقب المعركة كما يزعمون..

- وما دليلك على ذلك؟

- اسألوا قلوبكم.. إنى بريئة..

- قلوبنا تقول إنك جاسوسة ذات عبقرية..

- إلىّ بـ«د سناك» إذن.. إنى على استعداد لأن أواجهه.

فأطرق الملك والبطريرك فى أسف، وبعد فترة صمت قال روبرت:

- الموتى لا يبعثون الآن.

فأظهرت ياقوتة أنها لا تفهم ما يرمى إليه، وقالت فى إصرار:

- لتأمر يا مولاى بإحضاره.. أنا واثقة أنه سوف يبرئ ساحتى..

فقال روبرت فى جفاف:

- لقد مات..

- مات؟؟

- أجل..

- حتى الشاهد الوحيد الذى يؤكد براءتى.. مات.. ما أشقانى يالهى!!

وعادت لتذرف الدمع من جديد، فأشار الملك بأن يأخذوها إلى معتقل الأسر لحين صدور أوامر أخرى، وحينما انصرفوا بها، أخذ الملك يفكر فى أمرها، ويستشير روبرت، كان من رأى الأخير أن يقتلوها حرقًا بالنار، أما الملك فقد كان على خلاف ذلك، ولهذا قال:

- ما أسهل أن نقتلها أيها الأب المقدس، لكن ما الفائدة التى نجنيها من وراء ذلك؟

-إن القتل عقاب الجواسيس والخونة، وهذا شىء مقرر، فقال لويس فى هدوء:

- كلا أيها الأب، لن نقتلها.

- ولِمَ؟؟

- إذا كانت جاسوسة فعلاً، فقد قضينا على نشاطها، وشللنا حركتها بوضعها فى معتقل الأسرى، وإذا كانت غير ذلك، فسوف نبقيها أيضًا أسيرة زيادة فى الحيطة، ثم لا تنسَ أن المسلمين قد أخذوا منا كثيرين من الأسرى، وسيأتى يوم نتبادل فيه أسرانا وأسراهم، ولهذا أرانى مرغمًا على عدم قتلها لأنقذ واحدًا من أبنائنا . .

فلم يجد الأب مناصًا من أن يسلم برأى الملك . .

أما ياقوتة فقد وجدت نفسها بعد ساعة فى مبنى مظلم متسخ، يقوم عليه الحراس، وتحيطه الأسوار، فأطبق عليها الحزن، وأخذت تفكر فى أمر نفسها، هل سيقتلونها حرقًا كما أشيع أم سوف يدعونها أسيرة وكفى؟؟

لم تكن تعلم شيئًا عن نواياهم فى المستقبل، ومن ثم استسلمت للمصير الرهيب الذى ينتظرها، وبقيت فى سجنها حائرة لا تدرى ماذا تفعل، وأتى مارسيل لرؤيتها - كما توقعت - عندما سمع بنبأ القبض عليها، ووقف إزاءها صامتًا لا يدرى ماذا يقول، فجاءه صوته ضارعًا:

- هل سيقتلونى حقيقة؟ أنا بريئة، وأنت تعلم ذلك؟ ألا تنقذنى يا مارسيل؟

أما مارسيل فقد أطال فيها النظر، وأحس بمشاعر شتى تتوزع فى نفسه، وتبعث فى قلبه الحيرة والقلق، فآثر أن يمضى من حيث أتى دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

الفصل الحادى والعشرون

بلغ توران شاه مصر عائدًا من حصن كيفا، وفى خضم الكفاح الدامى والانتصار الرائع الذى حققته المنصورة فى يومها الأغر نودى بالسلطان توران شاه ملكًا فى اليوم الرابع والعشرين من شهر فبراير عام ألف ومائتين وخمسين، وبايعه المماليك وأعيان القوم ووجوههم، وما كان أسعده وهو يقدم من بعيد فيجد العرش شاغرًا، ويجد الحجاب والوزراء، وشجرة الدر يقدمون له فروض الطاعة والولاء، ومع ذلك فقد كانت فى النفوس ثورة، وفى الحلوق غصة، فتوران شاه معروف بصلفه وغروره مشهود له بالباع الطويل فى مجال الخلاعة والمجون والعبث والاستهتار لكن ماذا يفعلون والحرب دائرة، والطامعون فى العرش كثيرون، وأى خلل يصيب أداة الحكم، أو يعصف بوحدة البلاد- لا شك سوف يمكن الأعداء من تحقيق مطامعهم، والقضاء على حرية مصر وكرامتها؟؟ والمصريون كثيرًا ما ينسون الإساءة ويغفرون الآثام، وخاصة فى هاتيك الأوقاف الحرجة التى تستلزم التضحية والغفران . .

لم يكن أمر الحاكم المستبد بالأمر المهم الذى يحتل المكانة الأولى بل كان العدو المرابط حول المنصورة وفى دمياط هو الخطر المحدق الذى يتطلب الصراع والنضال المرير كى يرد على أعقابه مدحوراً . .

ثم إن الناس تعشموا أن يفيق توران شاه إلى رشده، ويغير من سياسته بعد أن أصبح ملكًا عليه مسئوليات جسام يجب أن ينهش بها، ويضطلع بأعبائها، فضلاً عن أن الحالة السياسية والحربية فى مصر تدفعه دفعًا لأن يعيد التفكير فى خطة حياته، والأجواء المحيطة به ، غير أن الناس فجعوا فيه فجيعة كبرى بعد جلوسه على العرش بأيام . .

أما عدنان بن المنذر فقد اجتاحته موجة يأس عارمة، وصار ليله ونهاره مزيجًا من الضيق والنكد، إذ ما أقسى أن يرى الإنسان من يظلمه وهو فى قوة بطشه وعنفوانه، ومن حوله القوة والأدوات وكل وسائل السيطرة والنفوذ، أهكذا يصبح توران شاه ملكًا ، ليسرق النساء من جديد ، ويقذف بالشرفاء والأحرار خلف الأسوار؟ وكيف يعيش عدنان بعد ذلك؟ وهل من الممكن أن يأمل مرة ثانية فى لقاء زمردة التى لا يعرف مصيرها؟ ولو فرضنا أنه وجدها ، أيستطيع أن يسعد معها وذلك الكابوس - توران شاه- يحكم البلاد ويتصرف فى مصائر الناس؟

وغمغم عدنان فى حزن : إذا لم يقض على توران شاه، فوداعًا أيتها الحرية، ووداعًا أيتها السعادة وأيها الشمم . . أليس فى الناس

من تأخذه نخوته، ويدفعه حبه لوطنه حداً لمساخر هذا الأرعن؟ غداً ننتصر- وهذا ما أعتقده- ويجلس توران شاه على كرسى المملكة يأمر وينهى؟ أتمعن الأقدار فى النكاية بى، وتبالغ فى تعذيبها لى وحرمانى، والتفت عدنان إلى صديقه عبد الأعلى:

- أحس فى وجود توران شاه أن حياتى جحيم لا يطاق.. فرد عبد الأعلى في بساطة محنقة:

- هناك كثير من الأوضاع الشاذة المؤلمة التى يجب أن نرضى بها رغم أنوفنا.

فقال عدنان ثائراً:

- ما هذه الفلسفة الحمقاء؟ تلك حياة العبيد.

- بل طبيعة الحياة.

- هل معنى الحياة أن نعيشها تحت ضغط وتوتر شديدين؟

- لا أقصد ذلك، أنت تكره توران شاه، وغيرك يطرب لتوليه العرش فتتألم أنت بينما يسعد غيرك.. ومع ذلك فإن الأغلبية تمقته، لكنها فى الوقت نفسه تخشاه وتخشى بطشه وتنكيله.. وليس معنى ذلك أن تواجهه فى ثورة وتتخلص منه الآن.. لتنتظر قليلاً، خذ نفسك مثلاً أنك لم تثر وتفكر فى الثأر من توران شاه إلا بعد أن خطف امرأتك وأذاقك مرارة السجن فلِمَ لم تثر قبل ذلك؟

- إن إحساسى بالظلم الواقع على شخصى كان أعمق أثرًا من الظلم الواقع على غيرى، هذا حقيقة شعورى، أما الآن فكأنى أحس بكل كارثة يوقعها ذلك المأفون بأى مصرى فى بلادى . .

فقال عبد الأعلى :

- حسنًا . لننتظر حتى يكثر عدد المظلومين من أمثالك عند ذلك يكتسح طوفان الثورة توران شاه وبطانته وما أظن ذلك اليوم ببعيد، فقد علمت أنه منذ وصوله وهو دائب على العبث، إذ إنه أجرى بعض التعديلات فى وظائف الدولة والقصر السلطانى، وقرب أعوانه الذين ينتهجون نهجه، وأتاح الفرصة للوصوليين، واللاهين كى يتحكموا فى الناس، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إنهم حرضوه على زوجة أبيه شجرة الدر، وأوقعوا بينها وبينه فلجأ إلى مضايقتها، واتهامها بتبديد الأموال بعد موت أبيه، مما أحفظها عليه، وجعل بذور الخلاف تنبت بينهما، غير أن الشىء المهم هو ما يحسه توران شاه نحو المماليك من شك وتوجس وتدبيره المكائد للتخلص منهم، والقضاء على نفوذهم المستفحل، وبالطبع لم يرق ذلك لهؤلاء المماليك، من هذا ترى أيها الصديق العزيز أن توران شاه فى موقف لا يحسد عليه، فلا الشعب راض عنه، ولا شجرة الدر تطمئن إليه، ولا المماليك ترتاح إلى نواياه، وإن ملكًا يتخلى عنه جيشه، ويكرهه شعبه، ويحنق عليه أهل بيته لجدير بأن تجهز له الأكفان، وتحفر له القبور .

وهكذا لخص عبد كالأعلى الموقف في عبارات قليلة موجزة، وأعطى صورة صادقة لما عليه الحال بالنسبة للسلطان الجديد، غير أنه لم ينسَ أن يعلق ساخرًا:

- ومن يدرى؟ قد يتغير الموقف من لحظة إلى أخرى، أو يفيق توران إلى رشده، ويسلك السبيل الواضحة، ويرضى شعبه وجيشه وأهل بيته، ويبدو أنه يحاول استمالة المماليك إلى حين، فقد بذل لهم الوعود، ومنى المملوك «أقطاى» بتوليته حاكمًا للإسكندرية، وإن لم يفِ بوعده حتى الآن . .

وساد عدنان وجوم وألم، واحتقن وجهه غيظًا وحنقًا، وأحس بدبيب الفتور يسرى فى أوصاله، بل يقعده ويزين له حياة الخمول واليأس، لكنه أدرك ما تنطوى عليه هذه الأفكار من خطر داهم على حياته الخاصة وحياة أمته، فحاول أن يصرفها عن ذهنه، غير أنه تساءل بينه وبين نفسه قائلاً: ماذا يكون الحال إذا امتد العمر بتوران شاه وهو لم يزل فى عنفوان شبابه وطالت مدة حكمه الرهيب؟ إن التاريخ ملىء بمثل هذا فكثير ما استطاع بعض الطغاة أن يبقوا طويلاً ويذيقوا شعوبهم الويل والدمار، والبعض الآخر استطاعت شعوبهم أن تنتقم منهم، وتسقيهم من الكأس التى سقوا بنى وطنهم منها . .

وكأنما أدرك عبد الأعلى ما يعتمل فى رأسه صديقه، فقال:

- يبدو لى فى بعض الأحيان يا عدنان أن الله قد يمطرنا بوابل من الكوارث، أو يسلط علينا حاكمًا ظالمًا، لا لشىء إلا لكى يثير فينا

معانى الإباء والشرف، ويحيى بعض القيم التى أوشكت أن تندثر بيننا، فالظلم قرين التضحية، وأينما وجد الطغاة ظهر من يلوح فى وجوههم متوعدًا رادعًا . .

فأجابه عدنان فى حدة:

- ويحك يا عبد الأعلى، كثيرًا ما تقلب الحقائق، فأنا أعتقد اعتقادًا جازمًا أن عهود الظلام والظلم تخلق النفاق والكذب، وتمهد للانحلال والعبودية، أما الحكام العادلون فيعطون الفرصة لرعيتهم كى تبدع وتتقدم، وتحيا حياة رغيدة.

- كلانا صادق فيما يرى لحد ما؛ قد تكون هناك نقمة فى طيها نعمة، والعكس صحيح . .

●●●

ثم أخذ الاثنان يتحدثان عن المعركة، وما تكبده العدو من خسائر، والجمود الذى ران عليه بعد معركة المنصورة وما تبعها، وهجوم أقطاى الخاطف يوم الأربعاء التالى للمعركة فى أربعة آلاف فارس أقوياء الشكيمة، بذروا الذعر والهلع فى نفوس الفرنجة، وزادوا من قلقهم وضحاياهم.

وأخذ عدنان يتساءل عن الخطة المقبلة التى ينتوى المصريون تنفيذها، فأخبره عبد الأعلى أن «يوم عرفة» أى السادس عشر من شهر مارس فى العام نفسه سيكون يومًا له ما بعده؛ لأن المصريين

أنتجوا عديدًا من المراكب والشوانى والبطس الحربية، وتوالت الإمدادات المختلفة، وأصبحت المعركة الفاصلة قاب قوسين . .

استطرد عبد الأعلى فى ذكر التفاصيل عن المستقبل القريب وما يراه هو بالنسبة للموقف الراهن، غير أن عدنان قال :

- لقد هاجمنا العدو فى قلب معسكره أكثر من مرة، ومع ذلك فلم نقدر على القضاء عليه قضاء تامًا بعض القتلى والجرحى والغنائم هى كل ما تحققه . . هذا لا يكفى يجب أن تنتهى المعركة ؛ لأنها لو استمرت على هذا الوضع، فسيطول أمدها فيؤدى ذلك إلى نضوب فى مواردنا، وإنهاك لقواتنا . .

- فقال عبد الأعلى :

- لا بأس . . إن كل هجوم نقوم به يحطم جزءًا كبيرًا من مقاومة العدو وروحه المعنوية، وشيئًا فشيئًا تتناقص إمكانياته حتى ينتهى أمره، أما نحن هنا ففى بلادنا، وما دمنا كذلك فإمكانياتنا باقية لا تنفد، وفرص النصر ممتدة . . وأعتقد أن معركة يوم عرفة سوف تكون عيدًا لنا ومأتمًا لأعدائنا، وإنى أعد نفسى لهذا اليوم، وأتلهف على إتيانه . .

كان عبد الأعلى يتكلم فى حماس وأمل، وعيناه تبرقان فى ثقة واعتداد، ولفت ذلك نظر عدنان الذى ظل طول حياته يرى عبد الأعلى أنموذجًا للتاجر الحصيف الذى يتسم بالهدوء والنظرات العميقة الفاحصة ولا يساق وراء العواطف الرعناء، ويتحرى فى تحركاته وكلماته الوقائع الواضحة، ولا يتعلق بأذيال الخيال والشعر

والاندفاع . . لكن عدنان لم يلقَ بالاً إلى ذلك فالحرب مشتعلة، وأثره البعيد المدى، والناس يتحولون من حال إلى حال.

- إن حماسك هذه المرة يشبه حماس الأطفال السذج، حتى لكأنك سوف تخوض المعركة للمرة الأولى.

- لا أدرى حقيقة ما هنالك، غير أنى أشعر بمشاعر غامضة تهزنى هزًا . .

هذا ما قاله عبد الأعلى، والحقيقة أنه لم يكن يعلم ما يخفيه القدر فى طياته من مفاجآت لا تخطر له على بال، ومن أين له أن يعرف ذلك؟

●●●

الفصل الثانى والعشرون

كان عدد الأسرى المسلمين قليلاً، وكان واضحًا أن الصليبيين يرغبون رغبة أكيدة فى القضاء عليهم، حتى لا يكلفوا أنفسهم مئونة حراستهم والسهر عليهم، فضلاً عن أن الأقوات فى تناقص مستمر، والجوع متفشٍ بين الجنود، مما ينبئ بخطورة الموقف، غير أن فكرة لويس كانت تتركز كما قلنا فى الإبقاء على حياة هؤلاء الأسرى المصريين- بما فيهم ياقوتة الغجرية- حتى يستطيع أن يستبدل بهم أسرى الإفرنج لدى المسلمين...

وتجمع الأسرى المسلمون فى ناحية من نواحى المعسكر الذى يضمهم ويقوم من حوله الحراس، وكان تجمعهم بسبب حدث مهم، إذ حاول أحد الأسرى المسلمين الهرب، عقب القبض عليه، وكان من المنتظر أن تضرب رقبته بالسيف جزاء محاولته الهرب حتى يكون عبرة لغيره من نزلاء معسكر الأسرى، ولهذا وقف بقية الأسرى يجللهم الحزن، ويغشيهم الأسى، وفى عيونهم دموع خرساء، تأبى أن تبين، لكنهم تمالكوا أنفسهم، وشعروا بغير قليل

من الثقة والاعتزاز حينما بصروا بالأسير يقبل مغلل اليدين، وعلى ثغرة ابتسامة تنم عن عدم الاكتراث، وأمام جميع الأسرى أوقفوه وقد تعرى نصف جسده من أعلى، وشدوا وثاقه إلى أعمدة خشبية مثبتة فى الأرض. . وقالت ياقوتة الغجرية، وهى ترمق ما يجرى من بعيد:

- واكرباه. . سوف يقتلونه أمام أعيننا دون أن نحرك ساكنًا. . .

وكان اقتراب الموت كفيلاً بأن يستدر دموعها، ويطلق صيحات الاحتجاج من أفواه الأسرى الآخرين، ولكن الجنود الصليبيين لم يكونوا يأبهون لشىء، ويؤدون عملهم بطريقة آلية بحتة، حتى لكأن موت إنسان أو حياته ليس شيئًا ذا بال.

وما إن تم لهم شد وثاق الأسير، حتى وقفوا استعدادًا للخطوة التالية، وكأن هذه اللحظات القصار القاسية دهر بأكمله بالنسبة لبقية الأسرى.

- مجرمون. . .

هتفت بها ياقوتة الغجرية دون وعى، وقد فاضت عيناها، فالتفت أحد الجنود الفرنسيين، وقال فى سخرية:

- كفِّى عن هذا الهراء يا فتاتى الجميلة. .

وفاض بها الغيظ حينما سمعته يقول ذلك، إنه لا يراعى إنسانية، ولا يحترم آدمية، فكيف يغمز هذا الجندى بإحدى عينيه،

ويتكلم بهذه اللهجة الساخرة ويتحدث عن الجمال فى موقف يطل عليه وجه الموت . . موت إنسان، مهما كانت جنسيته أو جريرته . .

- أيتها القطعان الضالة . .

هذا ما أجابت به ياقوتة، بينما قال الجندى مرة ثانية :

- حالاً سيأتى مارسيل أيتها الغجرية، ولك أن تصبى عليه جام غضبك وحنقك . .

ثم وجه حديثه إلى بقية الأسرى :

- إن الفرار من هنا معناه الموت . . سوف يكون صاحبكم كبش الفداء بالنسبة لكم . .

ولم يكد يكمل حديثه حتى كان مارسيل قد أقبل وفى يده سوط طويل أسود، وكم كانت دهشة ياقوتة حينما رأت مارسيل لا يرفع سيفًا فوق عنق الأسير بل يلوح بسوطه عاليًا ثم يهوى به على جسده والأسير يتلوى من الألم ويكتم تأوهاته، واجدًا كل العار فى أن ينطق بكلمة آه أمام الجنود الفرنجة وأمام بنى وطنه الأسرى .

وهمس أحد الأسرى فى أذن زميله :

- ما معنى ذلك؟

- لا أدرى على وجه الدقة .

- هل ينوون تعذيبه بالسياط قبل قتله إمعانًا فى التعذيب والتنكيل؟

- ربما . .

- يا لهم من وحوش . . إنهم لن يخيفونا بقدر ما يثيرون فى أنفسنا مزيداً من الحقد ، والاستهزاء بالموت ، ومحاولة الهرب رغم ذلك . . .

ولم تطل الحيرة بالأسرى ، فقد علموا أن الأمر قد صدر بجلد الأسير بالسياط ، وعدم قتله ، لكن من يعود إلى مثلها فسوف يلقى الموت ولا شىء غير الموت .

وما إن انتهى الصليبيون من مهمتهم ، حتى ألقوا بالأسير وسط المعتقل فى غلظة وجفاء وارتمى الأسير دون حراك ، والدم ينزف من جسده ، لا يعى شيئًا مما حوله فأقبلوا نحوه محاولين تضميد جراحة لإسعافه كى يفيق من نوبة الإغماء التى انتابته ، أما ياقوتة الغجرية فقد جففت دموعها ونظرت إلى مارسيل وعيناها تقدحان بالشر ، وقالت :

- وغد . . .

- لِمَ؟

فلما لم تجبه ، استطرد قائلاً :

- لقد حاول هذا المجنون أن يقتل حارسه كى يهرب ، وكان من الممكن أن أظل ألهب جسده بالسياط حتى يموت لكننى أبقيت على حياته . . هذا منتهى الرحمة يا عزيزتى ياقوتة .

- الرحمة . . لا تتحدثوا عنها ، فأنتم أبعد الناس عن المشاعر الإنسانية . . لستم بشرًا . .

- الرحمة مسألة نسبية أيتها الغجرية، فشتان بين ضرب السياط وبين الموت . . إن الحياة شيء غالٍ ثمين كما يقولون ، والإبقاء عليها- رغم السياط التي ألهبنا بها جسده- شيء عظيم في حد ذاته . .

وليس هذا بمستغرب من أقوام يعيشون في غابة ، أعني حقول الموت التي نمشي فوق أشواكها حفاة في الصباح والمساء .

فنظرت ياقوتة إليه في ازدراء . . ثم همت بالإسراع نحو الأسير ، غير أن مارسيل جذبها من كمها ، وقال في غيظ :

- لقد كرهت كل شيء . . كرهت الملك والجيش هنا . . وكرهتكم أنتم أيضًا ، وكذلك من في باريس . . حتى الحياة لم يعد لها طعم بالنسبة لي ، ومن فقد حاسة الذوق أيتها البلهاء لا يحس بشيء جميل يأكله ، إنني أضرب بالسوط حسب الأوامر أضرب أي إنسان يقدمونه لي ولو كان البطريرك روبرت نفسه . . أحس كأني أنتقم لأساي وقلقي وضيعتي في هذه الحياة . .

فانتزعت ياقوتة كمها منه في عنف ، ثم تقدمت ناحية الأسير ، أما هو فقد تنهد في حسرة ثم طوح بسوطه في الهواء بلا وعي ومضى خارجًا . . .

ونسيت ياقوتة جراح الأسير وإغماءه حينما نظرت إلى وجهه . . وأخذت تدقق النظر في ملامحه ووجهه الشاب ، وشعره

الأسود الذى تخللته بضع شعرات بيضاء قليلة . . وهتفت فى صوت لم يسمعه أحد :

- إن وجهه مألوف لدىّ، ترى أين رأيته؟

وحاولت أن تتذكر ، من يكون؟ وأخذت تبحث فى ثنايا الماضى عن صاحب هذا الوجه ، إن قلبها يحدثها بأنها تعرفه ، ويخيل إليها أنها رأته مرارًا لا مرة واحدة ، وسألت ياقوتة أحد الواقفين :

- ألا تعرفون اسمه؟

- كلا . . لقد أمسكوا به منذ أيام قليلة فقط ، ولم يأتوا به إلى هذا المعسكر إلا أمس وقبل أن يشرق النهار ، كان قد تسلل محاولاً الهرب فأمسكوا به مرة ثانية ، وفعلوا به ما فعلوا الساعة . . .

وهكذا لم تستطع ياقوتة الغجرية أن تتعرف عليه ، رغم أنها أخذت تستعيد صور الوجوه الكثيرة التى التقت بها فى حياتها الصاخبة الممتلئة بالأحداث ، ما أكثر ما رأت وما سمعت ، ويبدو أن اكتظاظ هذه الحياة بالغرائب والأشخاص والانفعالات قد تسببت لها فى عدم القدرة على التمييز بين هذه الأشياء العديدة من المتناقضات ، ولم تجد مناصًا من أن تعود إلى حجرتها ، بعد أن حملوا الأسير إلى جناح الرجال ، غير أنها لم تستطع أن تبعد عن ذهنها صورة ذلك الوجه الذى رأته اليوم والذى لم تستطع تقلصات الألم والشحوب الذى يسود وجهه أن تخفى ملامحه تمامًا . . .

●●●

حينما أطل المساء كان الأسير قد ثاب إلى رشده، وعاد إليه بعض نشاطه وحيويته، وارتسمت على ثغره من جديد تلك الابتسامة الهادئة التى تسخر من الألم والعذاب، والتى تشع منها الثقة والإيمان وأخذ الأسير يروى للأسرى القليلى العدد كيف أن توران شاه أصبح سلطانًا للبلاد، وكيف واصل المصريون نضالهم الدامى ضد الفرنجة، ثم ذكر لهم تلك المعركة الأخيرة التى دارت رحاها فى يوم عرفة أى فى السادس عشر من مارس، قال الأسير:

كان من الضرورى أن ينمو أسطولنا وتزداد عدد قطعه، وتصادق أن علمنا أن العدو قد شحن ما يقرب من خمس وخمسين سفينة بالمؤن والذخائر والرجال، مزمعًا المسير من دمياط إلى البحر الصغير حيث ترابط قواته، فأسرعنا بنقل قطع المراكب وأنزلناها فى «بحر المحلة» وأخفيناها عن العيون، كما كمنت قواتنا المدربة فى مكان قريب، وعندما لاحت لنا من بعيد أشرعة السفن، واقتربت طلائع أسطول العدو زحفنا بمراكبنا وشوانينا، وحاصرنا العدو من كل مكان.. كانت معركة دامية رهيبة فى بداية الأمر، لكنها لم يمتد بها الوقت فقد أسلم العدو لنا نفسه وسفنه، وأصبح الجميع فى يدنا وهم بين أسير وجريح وقتيل.. واستولينا على جميع السفن والذخائر، ثم حدث الشىء نفسه فى يوم عرفة.

إنه يوم عيد أيها الأصدقاء، وعيد الأضحى كما تعلمون عيد الفداء والتضحية والصبر، فكان لزامًا علينا أن نحتفل بيوم عرفة

احتفالاً خاصًا، احتفالاً من نوع جديد، وهكذا انطلقنا نمخر عباب الماء حيث التقينا بجزء آخر من أجزاء أسطول الفرنجة لكنهم كانوا هذه المرة على استعداد لمنازلتنا، وكانوا مصرين على أن ترجح كفتهم، لعل ذلك يقوى من مركزهم، ويجعلهم فى وضع يملون فيه بعض الشروط علينا، كما يتوهم مليكهم لويس، ولهذا كان كانت المعركة أقسى وأمر، وغير أن أسطولاً آخر لنا كان قد قدم من ناحية المنصورة، وهكذا أصبح العدو بين شقى الرحا وصار مخيرًا بين الموت والتسليم.

وصمت الأسير لحظة، ثم استطرد فى صوت خفيض:

- وكان لى شرف الجهاد فى المعركتين.

فرد أحد الجالسين.

- فكيف وقعت فى الأسر إذن؟

- خيل إلىَّ أن أحد أصدقائى قد عرج على معسكر الأعداء فتبعته إشفاقًا عليه؛ لأنى أعرف مدى اندفاعه وعدم اعتصامه بالحيطة والحذر، وكم كانت دهشتى عند ما لم أجده، وفكرت لِمَ لا أفعل شيئًا؟ كنت أستطيع على الأقل أن أشعل النار فى أكداس الخشب التى يحاول العدو أن يصنع منها سفنًا جديدة ليعوض ما استولينا عليه من مراكبه، وما إن اشتعلت النار وحاولت الانسحاب، حتى كشفنى الضوء وأحاطوا بى.

●●●

وفى اليوم التالى صدرت الأوامر بترحيل جميع الأسرى إلى دمياط حتى لا يكونوا مصدراً للقلق والخطر فى خطوط القتال الأمامية.

وحينما كان الأسرى يجمعون حاجاتهم استعداداً للسفر، رأت ياقوتة أسير الأمس يقف فى أتم صحة وعافية دون أن تبدو عليه أمارات الجزع أو الضيق، فاقتربت منه وقد أسدلت خماراً أسود على وجهها، وقالت:

- لعلك أحسن حالاً الآن.

- الحمد لله.

ثم قال وقد نمت تقاطيعه عن إعجاب:

- أظنك ياقوتة الـ..

- أجل الغجرية.

وتذكرت ياقوتة ما دار برأسها أمس، كانت تظن أنها تعرف صاحب ذلك الوجه، وكانت تتمنى أن تتأكد من ذلك لكنها فى هذا الوقت أصبحت تشك فيما ظنته البارحة، وبدا لها أن ظنها السابق توهم لا ظل له من الحقيقة، ويبدو أنها اقتنعت بذلك أخيراً فلم تفكر فى أن تسأله عن اسمه أو بلده، لكنه قال فى هدوء:

- أما أنا فاسمى عبد الأعلى بن سلمان من تجار المنصورة.

فارتجفت ياقوتة عند سماعها لاسمه ، وتطلعت إليه في ذهول وكأنها لا تصدق عينيها، وخفق قلبها خفقات متلاحقة، واختلطت فيه مئات المشاعر والآمال، ولولا الخمار المنسدل فوق وجهها، وإطراق عبد الأعلى ونظراته المصوبة إلى الأرض لهالها التغير الذى طرأ عليها . . .

وهمست ياقوتة الغجرية :

- عبد الأعلى بن سلمان؟ تاجر المنصورة؟

- أجل . . .

- ما أعجب تصرفات الأقدار! إن لى معك حديثًا طويلاً .

وأيقظها من استغراقها وأفكارها أصوات الجنود الجفاة وهم يصدرون أوامرهم بالرحيل . . أما عبد الأعلى فقد أدهشه ما سمع ، واشتد شوقه إلى ذلك الحديث الطويل الذى وعدته به ، لكنه كان مضطرًا لأن ينفذ أوامر الجند أولاً والوقت ممتد بعد ذلك للكشف عما تخفيه تلك الغجرية من أسرار .

●●●

الفصل الثالث والعشرون

مارسيل أيها الابن العاق، إنك أخطر على قواتنا من فرقة بأكملها من جنود مصر.

قالها أحد الجنود إثر نوبة من الانفعال والتمرد اجتاحت مارسيل من جراء الوضع المزرى الذى آل إليه أمر الغزاة، فلم يلفت مارسيل إلى تعليق الجندى ومضى فى طريقه، والحزن يغمر قلبه، وعلى شاطئ البحر الصغير أخذ ينقل خطواته المتباطئة، ما أعجب أمره، إنه يحملق فى مياه النهر ويرمق الجثث الطافية فوق سطحه وقد تعفنت، وانتشرت رائحتها التى تزكم الألوف، وغمغم مارسيل فى حسرة:

- أية جريمة شنعاء اقترفها لويس!! أهذا هو القربان الذى تقدم به إلى الرب؟ لكم يحزننى أن يكون ذلك المصير هو نهاية أولئك المحاربين التعساء!! أيتحول جنود فرنسا وزهرة شبابها إلى رمم منفرة ينهشها السمك وتختطفها طيور السماء بعد أن خروا صرعى الحرب والجوع والوباء الفتاك؟؟ لكأن الأقدار تسخر منا، وتظهر الشماتة

بنا حين شاءت ألا تجد قبراً لهؤلاء المساكين إلا بين ضفتى ذلك البحر الصغير، حتى تقع عليهم أعيننا فى الصباح والمساء.

وأفاق مارسيل من أفكاره المتسعة على صوت واهن ضعيف يقول:

- أستحلفك بالله أيها الرفيق أن تعطينى جرعة ماء.

ونظر مارسيل ناحية الصوت فلمح جنديًا يرتمى قرب الشاطئ لا يستطيع النهوض من مكانه، واقترب مارسيل منه، إنه يئن ويتوجع، وعلى وجهه الضامر الشاحب أمارات ذعر وحسرة، فنظر مارسيل إلى عينيه الغائرتين وثيابه الرثة المتسخة، وذراعه الواهنة المعروفة التى يتكئ عليها رغم أصابعه المبتورة والجراح والتسلخات الكثيرة التى تظهر فى جسده خلال ثيابه الممزقة، وانحنى عليه مارسيل قائلاً:

- كيف حالك أيها الأخ؟

- مثل حال أولئك المبعثرين فى أنحاء المعسكر، لا يستطيعون النهوض ويلحون فى طلب جرعة ماء.. اسقنى أولاً..

- أعطنى يدك لأحملك إلى النهر فتشرب وتغتسل..

فصرخ الجندى الجريح مرتاعًا:

- بالله لا تأخذنى إلى النهر، إن منظر الجثث الطافية يرهبنى.

فأطرق مارسيل ثم قال:

- حسنًا، ما دمت لا تريد ذلك فسوف أحضر لك الماء هنا.

وبعد لحظات عاد إليه بالماء، الماء المختلط بالدم والجراح والأشلاء، لم يكن يحس بتقزز أو غثيان، إنه يؤدى ما يطلب منه آليًا، ويعيش فى هذا الحقل الرهيب- حقل الموت- عيشة يغشيها الضباب والضياع والضلال، فلا ضير إن شرب الماء الآسن إذا لا يوجد غيره، ولا بأس بأكل اللقمة المعفرة بالتراب ما دامت ستسد جوعته، وتنقذ حياته، بعد أن نفد القوت، واستولى الأسطول المصرى على السفن بما فيها من مؤن وذخيرة وعتاد ورجال وقطع الاتصال بين الفرنجة فى دمياط وبقيتهم لدى البحر الصغير.. عرى وحفاء وجوع وظمأ لم يبقَ إلا أن يأكل الجند لحوم الخيل أو لحوم بعضهم..

- خذ أيها الأخ واشرب.

فأجاب الجندى التعس:

- أين هى؟ إنى لا أرى.

- إن عينيك مفتوحتان.

- ومع ذلك فقد فقدت بصرى.. ثم إنى لا أستطيع أن أحرك ذراعى..

قال ذلك دون أن يرفع رأسه التى يوسدها التراب والقش، فانحنى عليه مارسيل كى يسند رأسه حتى يتمكن من أن يسقيه لكن الجندى الجريح قال وقد تحشرج صوته:

- شكرًا يا صديقى.. دعنى كما أنا إن أقل حركة سوف تقضى على لتصب الماء فى فمن دون أن تحرك رأسى.

وما إن شرب حتى أسبل جفنيه، وأخذ يتنهد ويئن أنات موجعة، ومن بين أناته وتنهداته أخذ يغمغم:

- هل الشمس مشرقة؟

- أجل . . .

- والمصريون، ألن يهجموا اليوم؟

- لا أدرى . .

-آه . . أرجو ألا يفعلوا ذلك قبل أن أسلم الروح، إن حوافر الخيل وهى تدوسنا تشبه مطارق القضاء حينما تدق رءوسنا، لكأنى فى جهنم العالم الآخر . . هذا هو الحصاد أيها الرفيق . . خيبة أمل . . وضياع . . وموتى بلا قبور . . وأوبئة . . وسخريات من السماء ومن الأرض . . وظلام رغم الشمس المشرقة، إن شمس مصر لاتنير إلا طريق المدافعين عن أرضها . . يخيل إلى ذلك . . أين الملك يا رفيق؟

- فوق سفينته.

- ماذا يفعل؟

- يصلى للرب . . .

- ها . . ها . . .

- لماذا تضحك؟ لم يبقَ أمامنا إلا السماء نتوجه إليها بدعوتنا . .

لقد حاول الملك التفاوض مع الجانب المصرى فلم يقبلوا إلا تسليم دمياط، وأخذ الملك لويس نفسه كرهينة . .

- أوَ تعتقد أن صلاة لويس سوف تغير مصير الحرب المحتوم؟! .

- لا أدرى .

فصمت الجندى الجريح لحظة، ليستجمع قوته، ويقول :

- اذهب وابصق فى وجه الملك . . .

ولم يكد مارسيل يلتفت إليه حتى فوجئ بضربة سيف تهوى على رأس الرجل المدد، ووجد فارسًا من فرسان الداوية يقول فى حقد مكبوت :

- خير لك أن تموت . . لو كنت سليمًا لحاكمناك بتهمة الخيانة والكفر . . .

وأفاق مارسيل من دهشته فأثارته تلك الوحشية وهذه العصبية الحمقاء المتهوسة، وبدا له أن فارس المعبد مجنون لا يدرى ما يفعل لو يعى ما يقول لكنه أمعن الفكر فى تلك الصورة الضاربة التى قتل بها الجريح، ثم أسرع بامتشاق سيفه ورفعه فوق رأس الفارس، وهو يقول :

- يجب أن ننتصر على حماقاتنا وأفكارنا الفجة قبل أن ننتصر على العدو .

ودارت بين مارسيل وفارس المعبد مبارزة حامية، وتصارع سيفاهما فى حقد مجنون وأخذا يلفان ويدوران، وما إن رآهما

بعض الجنود حتى تقاطروا على مكان المبارزة، وسرعان ما تعصب الداوية لزميلهم، وفى الوقت نفسه وجد مارسيل من ينضم إليه ويحمى ظهره فاتسعت رقعة المعركة، وحمى وطيسها بين الفريقين، وقد تناسى الفريقان أمر المصريين الذين يرابطون على مقربة منهم، ويوشكون أن ينقضوا عليهم الانقضاض الأخير، وتساقط الصرعى، وتعالت الصيحات وسرعان ما بلغ ذلك مسامع الملك لويس، فعاد مسرعًا يصحبه البطريرك روبرت، وما إن ظهر الملك فى ميدان المعركة، وهتف بهم أن يغمدوا سيوفهم حتى تراجع الجميع، وهدأ الضجيج، وأخذوا يعودون من حيث جاءوا تاركين مزيدًا من القتلى والضحايا.

وقال الملك:

- ها أنت ترى أيها الأب روبرت أن جنودنا قد فقدوا كل معنى من معانى الترابط والثقة..

- أمر يؤسف له يا مولاى..

- سوف نعود إذن إلى دمياط..

- إنها الهزيمة يا مولاى.

- كان النصر فيما مضى معناه احتلال مصر ثم الشام، أما الآن فالنصر الذى نتمناه هو أن نعود إلى دمياط سالمين، أو ننسحب بأقل الخسائر الممكنة، من يدرى؟؟ قد تسعفنا الأقدار بما يضمد جراحنا فنعيد الكرة، وتتحقق الأحلام، آه يا روبرت.. أحس أن الله

غاضب عليّ، لست أدرى لماذا؟؟ ألأنى لم أنتصر؟؟ النصر ليس فى يدى لو كان مجرد التمنى كفيلاً بأن يحقق ما أريد، لبلغت ما أصبو إليه فى لحظات، ولرفعت الصلبان فى آفاق القاهرة ودمشق وبغداد، ولسقت المسلمين عبيداً وأسارى ليركعوا ويمرغوا جباههم تحت أقدام القساوسة والرهبان، ولحملت خيرات هذه البلاد وذهبها إلى أوربا، ولوضعت مصيرها بين يدى البابا.. لكن أترانى أخطأت فى شىء؟؟ هل عصيت الرب؟؟ فما معنى ذلك الهاتف الذى صرخ بى فى أثناء مرضى أن اخرج يا لويس إلى الشرق، وحرر بيت المقدس؟؟؟

فقال الأب روبرت:

- حذار يا مولاى أن تستطرد فى مثل هذه الخواطر، ما قدر يكون، والمجد لله فى الأعالى، والمعركة لم تنته بعد..

فهز لويس رأسه فى حيرة وألم ثم قال:

- لم يكن غريبًا أن نصل إلى هذه الحال، وإنما الغريب أن ننتصر وبين جنودنا تنتشر المباءات والمطامع والمكائد، وليس السيف والذراع القوية هما كل شىء فى المعركة بل هناك أشياء كثيرة أخرى افتقدناها جميعًا، وهى التى تقرر مصير المعارك الكبرى..

●●●

وأخيراً قرر الملك لويس الانسحاب، فأعطيت الأوامر للكتائب الموجودة فى شمال البحر الصغير كى تتقهقر أولاً، بيد أنه حدث

خلال تنفيذ هذا الانسحاب أن قام المصريون بهجوم عنيف، فاكتنفت مهمة الانسحاب صعوبة طارئة، وقد بذل الفرنسيون كل ما فى طاقتهم من جهد لنقل القوات فى الوقت الذى كانت فيه مؤخرة الجيش معرضة لأشد الضربات.

وعقب أن تم الانسحاب المبدئى على هذه الصورة عاد الملك فطلب فتح باب المفاوضات مرة أخرى مع السلطان توران شاه، غير أن المصريين كانوا أعلم هذه المرة بما يلقاه المعتدون من الشدائد، إذ نقص عدده، وتحطم عدته، كما نفذت مئونته، وصار فى حال من البؤس لا يرجى له من بعدها قومه ولا حياة، فطلبوا من ذلك الجيش العاجز ضمانة للانسحاب من دمياط، وكان المنتظر أنهم سيكتفون بأحد أشقاء الملك رهينة لديهم لكنهم رفضوا أية رهينة غير الملك نفسه.

وظلت الحال معلقة فترة من الوقت، والمصريون يصرون على أخذ الملك ولا يرضون بديلاً، والفرنسيون يأبون أن يسلموا ملكهم، حتى اشتدت عليهم وطأة الجوع، وطوت بطونهم قسوته، وتكاثر فتك الحمى وارتفعت ضحاياها..

إنه لموقف عصيب.

الأرض مفروشة بأجساد المرضى والجرحى.

والفضاء يرتجف بأنات الألم، وحشرجة الموت، وقد نفقت الخيول، وقتل صفوة الفرسان وزهرة الشباب..

لقد أخفقوا فى مفاوضات التسليم، ولم يبقَ أمامهم ما يفعلونه إلا أن يعودوا ويا لها من عودة محفوفة بالمخاطر . .

وعند الانسحاب ولى الصليبيون فى عجلة وذعر ونسوا أن يتلفوا القنطرة التى عبروا بها البحر الصغير، ومن ثم قدموا لجندى مصر ممرًا يجتازونه فى أعقابهم فيضيقون عليهم الخناق . . .

وكان الخط الوحيد الذى يتسنى الانسحاب فى اتجاهه هو الجسر الطينى المرتفع على حافة النيل؛ نظرًا لأن طريق الحقول والقرى، كان يقطعه على طول المسافة كثير من القنوات العميقة، ومجارى المياه، وفضلاً عن أنه كان مخفورًا فى أكثر نواحيه بالجند المسلمين.

وقد بدأ الانسحاب فى مساء اليوم الخامس من أبريل سنة ألف ومائتين وخمسين ميلادية، حين ترك الجيش الصليبى متجهًا صوب الشمال، تاركًا خلفه أكداسًا مكدسة من الخيام والذخائر والمهمات، وكان الجيش المصرى يجوس أنحاء الميدان طول الليل ويتصيد من يقع فى يديه من المتعبين أو الهاربين، وتبع المصريون الجيش المنسحب وهو فى حالة يرثى لها، واستمر النضال، وطالت المطاردة، ففقد الصليبيون آلاف القتلى ومن بقى منهم كان عليه أن يختار بين الموت أو الأسر . . .

فعلى أيهما وقع اختيار الملك لويس وفرسانه؟؟.

●●●

الفصل الرابع والعشرون

ضيّق المصريون الخناق على الفلول الهاربة، وأذاقوها مزيدًا من القتل والتنكيل، حتى ارتفع عدد الضحايا والأسرى، وأصبح الفرنجة بين شقى الرحا، وبات من الحماقة أن يصروا على المقاومة، وعند قرية «منية أبى عبد الله» تلفت الملك لويس حوله فوجد الجيش المصرى يزحف من كل جانب، وتفرس فى وجوه فرسانه، فأيقن أن التعب قد نال منهم كل منال، وأخيرًا عاد إلى نفسه، فوجد نشاطه قد فتر والمرض قد دهمه، حتى أصبح غير قادر على مواصلة الفرار، وقال لويس لمن حوله:

- لقد انتهينا. . إن المفاوض الذى أرسلته إلى المصريين لم ينجح فى مهمته؛ لأن المصريين يريدوننا جميعًا أسرى.

فأطرق الفرسان ولم ينطقوا.

- ما لكم لا تجيبون؟

فتقدم منه أحد النبلاء قائلاً:

- مولاى. . يجب أن تستريح: . إنك متعب.

ولم يطل المقام بلويس فى منية أبى عبد الله الواقعة على مسافة عدة فراسخ شمالى المنصورة، فقد أطبق الجيش المصرى على الصليبيين، وصمموا على أخذ الملك أسيرًا ، وكذلك من معه من الفرسان والنبلاء، وكان مارسيل يقف بين الفرسان يرى المأساة فى قمتها، ويرى آمالهم وأحلامهم وهى فى الرمق الأخير، تميل نحو الغروب لتلقفها هوة العدم، وتضمها فجوة الفناء الرهيب، وكم كانت دهشته حينما شاهد بعض المجانين من الفرنجة يحاولون فى يأس أن يستأنفوا المعركة لم يكونوا يدرون كيف يتصرفون، كانت الصدمة شديدة، وكان المصير تعسًا محزنًا، ومن ثم بدوا وكأنهم قد أصيبوا فى عقولهم، فصرخ مارسيل صرخة قوية تردد صداها بين الفرنجة، وأيقظتهم من غفلتهم، وردت الصواب إلى المتهورين منهم، وقال:

- أيها السادة الفرسان ألقوا السلاح واستسلموا جميعًا نزولاً على أوامر الملك ولا تكونوا سببًا فى ذبحه بيد العدو.

فدفعه أحد الفرسان دفعة قوية، وقال:

- أيها الخائن.

- إنى أقرر واقعًا.. انظر أيها الأعمى كيف سدت فى جوهنا المسالك.

- أتنصب من نفسك قائدًا يأمر وينهى؟

- لقد أصبحنا جميعًا أسرى.. ضائعين.. فلا قائد أو مقود.. بل هناك طريق واحد نسلكه صاغرين..

وألقى الفرنجة السلاح، وسادهم الوجوم والاستسلام، وسيق الألوف إلى أماكن مختلفة كأسرى، وأخذ لويس وفئة من رجاله إلى المنصورة، وكان عدنان بن المنذر يسير ضمن المكلفين بحراسة الملك الأسير، ورأى بعينى رأسه كيف يستسلم الملوك، وكيف يفقدون الأبهة والسلطان فى لحظة خاطفة، وكيف يطيعون الأوامر بعد أن كانوا هم مصدر الأمر والنهى، وكيف يسيرون يجلل موكبهم التعس الحزن والأشجان.. يا لها من لحظات.. هذا هو لويس الملك القديس الذى ملأ الدنيا ضجيجًا وأشعل الحروب، وساق الآلاف المؤلفة من أوربا كى يبنى لأمته ولدينه ولنفسه مجدًا ها هو يمضى صاغرًا أسيرًا، وقد تهدم كل ما أقامه فى خياله من قصور الآمال والأحلام، ولم تجده بركات البابا نفعًا، ولم ينفعه ذلك الهاتف الذى مد له فى حبال الأوهام، ولم يغنِ عنه ما جمع من جنود، وما ملأ به العالم من ضجيج، إنه من البشر والبشر ضعفاء.. معرضون لقانون التحول والتغير، ينتصرون ويهزمون، ويولدون ويموتون ويتسلطون ثم يقهرون حتى لو كانوا ملوكًا..

وفى هذه اللحظات العنيفة المليئة بالأحداث تذكر عدنان توران شاه بجبروته وصولجانه أمن المعقول أن يهوى توران شاه كما هوى لويس فيذهب سلطانه وينمحى جبروته وتزول دولته؟ إن طبول النصر الآن تدق فى كل مكان، ومواكب الظافرين تجوب أنحاء مصر تملأ الآفاق بأهازيج الانتصار، وتوران شاه يجلس على عرشه

فى عنجهية وكبرياء، وعلى بابه المرتزقة والشعراء يكيلون له المدائح، ويغرقونه بقصائد الإطراء، ويجعلونه بطل الأبطال، وحامى الديار وهازم الفرنجة، وطالع اليمن والبركة، ثم يسبغون عليه من الصفات ما لا يسبغونه على الأنبياء.. وهو الذى لم يخض معركة بنفسه، أو يضرب بسيف أو يضع خطة للمعركة، أهكذا تنقلب الحقائق وتروج الأكاذيب؟ أهكذا يعزى كل فخار إلى توران شاه، وينسى المنافقون والشعراء الدجالون قصة الكفاح الحقة، وأبطال المعركة الأساسين، فلا يذكرون أحداً من أولئك الشهداء المجهولين الذين يثوون فى جوف الثرى؟

لكنه غمغم فى ثقة: كلا يا عدنان.. إن الحقيقة هى الحقيقة ولن يضيرها أو يطمسها أبيات من الشعر الكاذب، أو خطب من النثر الملفق، لم ينتصر توران شاه، وإنما الذى انتصر هو الشعب الذى يسير بعض منه بملابس الميدان الرثة إلى جوار لويس ويسوقه أسيراً هو ورفاقه من الأمراء والنبلاء، ومن يدرى قد يكون اسم توارن شاه اليوم فى السماء وقد ينحط غداً فى الأوحال، ويذهب كل ما قيل فيه من مديح، ويحل محله قصائد الهجاء والنيل من مباذله ومفاسده التى يعرفها الجميع..

وهكذا ظل عدنان طوال الطريق من «منية ابن عبد الله» إلى المنصورة وهو شارد ذاهل عن المواكب الصاخبة وتكبر وتحمد الله عندما تقع أبصارها على الملك الأسير وصحبه، كان يفكر فى

أشياء كثيرة، أثارها فى نفسه رؤية لويس وهو يستسلم وكانت أفكاره تتنقل من شىء إلى آخر، وتذكر أثناء ذلك صديقه الحميم عبد الأعلى بن سلمان، ترى أين ذهب؟ هل أصابه سهم طائش أو ضربه سيف غاشم فأردته قتيلاً؟ إن عبد الأعلى الذى غامر كثيراً، واشترك فى أخطر المعارك ضراوة وكان يقذف بنفسه فى لهيب الحرب فى وقت كانت كفة الصليبيين راجحة، إنه لم يصب بمكروه فى ساعات الخطر والحرج، ومع ذلك فعندما ضيقنا الخناق على العدو وانقلبت الآية، وتحول النصر إلى جانبنا . . سقط عبد الأعلى . . ليته كان إلى جانبى الآن، إذن لأراحنى من عناء القلق والتفكير، ولأماط اللثام عن الكثير من الألغاز والغموض الذى يتبدى لى من آن لآخر . . رحمتك يا رب لو كان عبد الأعلى من ضمن الضحايا لأصبح ذاك كارثة كبرى بالنسبة لى على الأقل . .

ولم يكن عدنان يعلم شيئًا عن مصير صديقه، والعجيب أن مارسيل الأسير كان يمشى إلى جوار لويس لكن أنّى لعدنان أن يعرف أن مارسيل كان ذات يوم جلاد صديقه عبد الأعلى، إنه رآه وهو يرحل مع بقية الأسرى صوب دمياط قبل تقهقر الفرنجة بوقت ليس بالطويل؟

وأخذ عدنان يناقش نفسه الحساب . .

أين ذلك اليوم الموعود الذى كان يهذى به عندما غشيته الحمى؟ ما الذى تحقق منه حتى الآن؟

إن زمردة جاريته -أو بتعبير أدق زوجته المرتقبة- قد ذهبت بعيداً ولم يعثر لها على أثر . .

وتوران شاه في قمة مجده تساق له الأسرى، ويقاد إليه لويس مقيداً ذليلاً، ويرتع في ملاذه وشهواته وكأنه لم يظلم أو يسرق النساء أو يرتكب الموبقات، وهكذا لم يثأر منه أحد، أو يناقشه الحساب . .

وعبد الأعلى بن سلمان رفيق العمر قد اختفى هو الآخر، ولا يدرى أيطول غيابه أم يقصر، أرحيله إلى عودة أم غير عودة . . شيء واحد هو الذى تحقق لعدنان . .

لقد اندحر الفرنجة وانتصرت مصر، وانجلت الغمة وزال الخطر، وبقيت البلاد حرة عزيزة، وتحولت إلى مقبرة للغزاة المعتدين، وبقيت جنة عذراء مورقة لأبنائها الأمجاد . . وعدنان سعيد بهذه النتيجة الرائعة، فرح بذلك النصر المؤزر، أما آماله الفردية التى تتعلق بزمردة، وبالثأر من توران شاه وبعودة عبد الأعلى فهذه أمور - رغم أهميتها- يجب أن تحتل المكانة الثانوية، مع ما يحسه فى نفسه من مرارة، ويطويه بين جوانحه من آلام . .

إنه إنسان والإنسان الحق هو الذى يصهر آماله الكبرى- التى تتعلق بوطنه - مع آماله الفردية فى بوتقة ذاته، لكن إذا ما خير بين الاثنين، دفعته قيمه السامية ومبادئه الوطنية لأن يكون ابن قومه، وحارس مجتمعه، والمضحى فى سبيله بنفسه وآماله . .

●●●

وأفاق عدنان من شروده وقد بدت لناظره من بعيد مدينة المنصورة بمبانيها وزرعها وجلالها، ولمح أفواج الناس وقد أثاروا الغبار الكثيف فى جنبات الأفق، ولم يكن من الصعب أن يدرك سر تجمعهم، فقد كانوا فى مهرجانات النصر العظيم، ينتظرون مقدم الملك الفرنسى الذى أراد أن يحتل بلادهم، ويستعبد ذويهم، فكان أن حفر لمجده قبراً وارتد نصله إلى نحره، ولم يحكم وضع القيود التى أتى بها الأحوال ساقيه . .

ترى أية مشاعر صاخبة كانت تصطرع فى نفس الملك الأسير وهو يمضى ذليلاً عبر شوارع المنصورة وعيون المصريين ترشقه من كل جانب، لتتملى من جلالة الملك وهى تهوى، وقمة الكبرياء وهى تتدهور إلى الحضيض؟؟

- هنا منزلك أيها الملك، حتى تسلموا دمياط لنا، وتدفعوا الفدية المفروضة.

قالها المفاوض المصرى الذى أنابه توران شاه، وكان يشير بيده إلى دار متواضعة، هى دار القاضى ابراهيم بن لقمان التى تتطاول أمامها النخيل، وعلى باب الدار كان الطواشى صبيح يقف رافع الرأس، منتظراً اللحظة الحاسمة التى يدلف فيها الملك الأسير إلى الداخل . . ولِمَ لا يرفع رأسه وتسرى السعادة بين جوانحه، وهو سجان الملك ومن كبار فرسانه ونبلائه؟؟ ومع ذلك فقد كانت الأوامر تقضى بمعاملة الملك ومن معه معاملة طيبة.

أشياء كثيرة كان يفكر فيها لويس وهو يتخذ مجلسه فى إحدى حجرات دار ابن لقمان ولم تستطع الجماهير الهاتفة فى الخارج، ولا الطبول التى يملأ الأفق ضجيجها أن تصرفه عن التفكير، كان يفكر فى أوربا: ماذا يقول عنه الملوك الآن؟؟ ويفكر فى البابا وقساوسته ورهبانه: كيف أصبحت نظراتهم إليه؟؟ ويفكر فى زوجته الشابة مرجريت التى أبعدت بينها وبينه الجدران والأقدار، ويستعيد الآمال الكبار التى ذهبت ولن تعود كما ذهب الأمس الدابر، لكن الشيء الذى أقلقه وأثار فى نفسه الأحزان، هو سؤال واحد أتراه كان مخدوعًا حينما اندفع إلى الشرق ليحارب؟؟ إن البابا قد شجعه وأسبغ عليه البركات، وأفهمه أن هذا هو الطريق إلى الله، لكنه فى هذه اللحظات الحرجة الرهيبة يحس أن ما فعله لم يأمر به المسيح، داعية السلام والتسامح، والذى حمل لواء المحبة، والذى لم يذكر فى إنجيله كلمة واحدة عن الدعوة إلى الغزو وإشعال الحروب، إن الأديان ومبادئها السامية لا يشترط أن يحميها ملك، أو ينشرها بقوة السيف فهى التى تحمى نفسها بسطوتها وقوة مفعولها وصلاحيتها؛ هى التى تفرض نفسها فرضًا؛ لأنها تجيء لسفك الدماء وبث الشقاء، وما الأديان فى جوهرها إلا حب وتسامح وسلام، ولم تكن أبدًا دماء وأطماعًا ووحشية..

وأحس لويس عندئذ أن هذا العذاب الفكرى، وذلك الندم الشديد أمر على نفسه من طعم الهزيمة الحربية، وأعمق أثرًا منها،

ولهذا حاول أن يهرب من قلقه وأحزانه إلى الصلاة لعلها تعيد إلى روحه شيئًا من السكينة والسلام لكن هيهات .

●●●

وانتشى السلطان توران شاه بخمرة النصر ، وأمر بتشييد سرادق على ضفة النيل بالقرب من فارسكور ، مسور بسياج جميل ، وفي حديقة الفناء حمام فاخر ، وعلى جانبيه أبراج من الخشب أحدها أعلى من باقيها وقريب من النهر .

وصدحت القيان بالأغاني ، وعزفت المزامير ومدت الموائد احتفالاً بالنصر الرائع . . ووقف عدنان يرمق هذه المواكب بعين ذاهلة وفكر شارد ، ومن آن لآخر يعود ببصره إلى ذلك السرادق العظيم ، ثم يصر على أسنانه .

هل هذه هي خاتمة المطاف؟

هذا ما قاله عدنان بن المنذر لنفسه ، لكنه أطرق صامتًا دون أن يجيب .

●●●

الفصل الخامس والعشرون

من الغباء أن ننتظر أكثر من ذلك .

هذا ما قاله الأمير القائد ببيرس فى جمع ضم عددًا كبيرًا من أمراء المماليك البحرية بعد أسر لويس التاسع ، فرد عليه أحد الأمراء قائلاً :

- لقد كان يضرب رءوس الشموع المضاءة بسيفه وهو سكران ويقول : هكذا سوف أضرب رأس بيبرس ، وهكذا سوف أقطع عنق أقطاى ، ثم فلان . . إن سكوتنا عليه معناه أننا نمهد له كى يُقدم على فعلته الشنعاء ، لقد قضينا على مطامع لويس والفرنجة ، وأرى أننا مضطرون أن نضع حدًا لحماقات السلطان توران شاه وعبثه ، حتى نستريح من الأخطاء الداخلية والخارجية فى الوقت نفسه .

وعلى هذا النمط سار الجدل بين الأمراء ، وكانوا موقنين تمام الإيقان أن توران شاه قد بدأ بداية سيئة فى حكمه حينما جاء بفئة من الندماء الشبان وأسند إليهم المراكز الكبرى ، واستمع إلى دسهم وتحريضهم حينما زعموا له أنه سلطان بالاسم ، وأن شجرة الدر

امرأة داهية يجب التخلص منها، وأن أمراء المماليك وغيرهم من كبار الشخصيات المصرية يحملون له أسوأ النيات، ولهذا تنكر توران شاه للجميع، وجردهم من مظاهر الشرف والسلطان ليسبغها على بطانته، فضلاً عن تماديه فى خطته القديمة فقد امتلأت لياليه بالمجون والعربدة والنساء، ولم يعد أمامه شىء ينغص عليه حياته- بعد أن أوشك أمر الصليبيين على الانتهاء- سوى أن يشتت المماليك والأمراء المصريين وذوى الحيثية فيهم حتى يخلو له الجو ويتمادى فى لهوه وملذاته.

ويبدو أن توران شاه كان واثقًا من نجاح خطته، فقد كانت مواكب النصر تذرع البلاد طولاً وعرضًا، وفى خضم هذا الضجيج وتمسحًا بهذا النصر العظيم أراد توران شاه أن ينفذ ما عقد النية عليه، ولكنه لم يكن بعد قد حدد الساعة الحاسمة.

وفى فجر أول مايو من ذلك العام، نهض توران شاه من فراشه الذى يثوى فى السرادق العظيم المقام على شاطئ النيل قرب فارسكور، كان رأسه مصدعًا من أثر السهر والخمر، ولكنه كان يشعر بجوع شديد، ومن ثم طلب طعام الإفطار على عجل وشعر بآلامه تزايله رويدًا رويدًا مع نسائم الصباح التى تلامس جبينه، وحينما لجأ إلى استراحته، فوجئ بفارس من النافذة المطلة على النيل، وقد أشهر سيفه وقبل أن يتفوه السلطان توران شاه بكلمة كان الفارس قد رفع سيفه وأهوى به يريد أن يضرب عنقه، لكن توران شاه تفادى الضربة فلم تصب عنقه، بل نزلت فوق يده فبترت

أصابعه، وتدفق الدم منها، فصرخ توران شاه صرخة جعلت الضباط والمقيمين فى السرادق يهرولون صوب الاستراحة، ثم أغمى عليه، أما الفارس فقد ولى الأدبار.

وحينما أفاق توران شاه من إغمائه وتلفت حوله قال:

- لقد أرادوا أن يفعلوها.

- مَنْ.. ؟؟؟

- المماليك البحرية.

- لعل الجانى أحد رجال الإسماعيلية الذين يدبرون الاغتيالات.

- كلا.. وأنا أثق مما أقول، لقد أراد المماليك قتلى.. سأعرف كيف أكيل لهم الصاع صاعين.

- نحن طوع أمرك يا مولاى.

وسرعان ما انتشر النبأ خارج سرادق السلطان، وعلم به جميع المماليك البحرية، وأفراد الجيش المصرى، وأصبح جليًا أمر مصير المماليك قد أصبح مقررًا، الموت ولا شىء غير الموت، وكأنما كانت هذه الحقيقة الرهيبة هى الصرخة التى أيقظت زعماء المماليك من سباتهم المؤقت، فأسرعوا بامتطاء جيادهم، ولباس عدة الحرب وتجمهروا حول السرادق يريدون السلطان، وسرعان ما تفرق أتباع توران شاه من حوله واختفى ندماؤه وضباطه، حتى الجوارى

والحاشية لاذت بالفرار، وبقى السلطان وحيداً يتلفت حوله فى رعب وعجب.

بمن تستنجد إذن؟؟

بشجرة الدر؟؟ كلا.. لقد سقاها كأس الهوان وقسا بها.

بندمائه ورفاقه؟؟

لقد ذهبوا بعيداً عنه خوفاً على حياتهم..

بشعب مصر؟؟ إن الشعب بعيد عن سرادقه، يمضى فى الحقول والقرى وفى ميدان القتال الذى لم تنفض مواكبه بعد، ثم أنه أذاقهم الويل من قبل، وسرق نساءهم وجرد أمراءهم وذوى الكلمة فيهم من رتبهم ومناصبهم.

أيستنجد بالمماليك وهم يطلبون رأسه بعد أن أعلن بلا مواربة أنه سوف ينتقم منهم ويريق دمهم؟؟

لم يبقَ إلا طريق واحد.

فلينس أنه عدو لهم، وليمنيهم الآمال الكبار، ويغدق عليهم الوعود، وإذا لم يجد هذا ولا ذاك نفعاً، فلينسَ أنه ملك، وليطلب منهم أن يتركوه يذهب إلى حصن كيفا ويتنازل لهم عن العرش..

وصاح به أحد أمراء المماليك: انزل إلينا..

لكن نزوله معناه الموت، ولهذا سارع بالالتجاء إلى أحد الأبراج العالية، لم يكن يدرى تماماً ماذا يفعل، لقد انقلب من ملك متنمر

متغطرس إلى طفل كبير، يثبت من مكان إلى آخر هربًا من رعيته التى تريد أن تثأر منه، وانجبت عن عينيه غشاوة السلطان والقهر، ووجد تلك الرعية التى تعوّد أن يأمرها فتطيع، وأن يصبّ عليها جام غضبه فتطأطئ رأسها، وجدها وقد تحولت إلى عملاق ضخم رهيب، تنطلق من صيحاتها ألسنة اللهب، ويثب من مقلتيها شعارات الثأر وحكم العدالة الجماعية، وهذا العملاق هو الذى هزم لويس وأيقن توران شاه أن هذا العملاق فى إمكانه أيضًا أن يهزمه.. لا.. بل يقتله شر قتلة..

وأطل توران شاه على الجموع التى تحيط بالسرادق إحاطة السوار بالمعصم، وقال فى ذلة ومسكنة:

- ما أريد ملكًا..

دعونى أرجع إلى الحصن.

يا مسلمين.. أما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى؟

وانتظر أثر كلماته لكنها ضاعت فى خضم الهدير الذى يطلب رأسه، فتلفت حوله لعله يعثر على شىء ينجده، السماء فوقه زرقاء صافية، والزروع الخطراء ممتدة فى بساطة رائعة، وفئة من الجيش المصرى تعسكر هناك دون أن يفكر أحدهم فى إنقاذ الملك الذى يطلبه الموت ويلح فى طلبه، إن توران شاه غريب.. لا يحس بالألفة مع أحد، ولا يأنس إليه أحد.. أهذه هى الأرض التى كان يحكمها والتى كان يعتقد أنها تدين له بالولاء؟ أين مطولات الشعراء ومدائح المادحين.. أكان كل ذلك وهمًا وسرابًا؟

باب واحد ظل مفتوحًا أمام توران شاه . .

باب الله . .

ولكن كيف يمد يده إلى الله وهى ملوثة بدماء الضحايا؟؟ وكيف يصرخ بدعواته، وما زالت رائحة الخمر تفوح من فيه؟؟

ما أفظعها من ساعة!!

وأضاءت فى نفسه بارقة أمل وهو يرى نائب الخليفة يتوسط لدى الثائرين، ومعه الأمير سيف الدين نائب السلطان بالقاهرة لكن الثائرين رفضوا كل وساطة، وعاملوهما بجفاف وقد قذفوا بالنار الإغريقية فوق البرج الذى آوى إليه توران شاه، فاشتعلت النيران، ولم يجد السلطان مناصًا من أن يقذف بنفسه فى النهر، ثم يحاول اللحاق بإحدى السفن التى ترسو قريبًا من السرادق لعله يجد الحماية . . لكن هيهات، فقد اندفع وراءه عديد من الثائرين ولحقوا به وسط النهر وقضوا عليه، فمات قتيلاً غريقًا محروقًا، وبقى على شاطئ كالنهر، بلا دفن يومين كاملين حتى أتى أحد الفقهاء الفقراء وكفنه وصلى عليه ثم دفنه.

ووجد الصليبيون الفرصة مواتية كى يتلكأوا فى تسليم دمياط والوفاء بما اتفقوا عليه مع المفاوض المصرى، وكان هذا كفيلاً بأن يجعل المصريين يوحدون كلمتهم، ويلمون شعثهم، ويتناسون تلك المأساة التى كان بطلها توران شاه، فأسرعوا بمبايعة شجرة

الدر. «المستعصمة الصالحة، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين».

ووجد الصليبيون بعد ذلك أنه أجدى عليهم وعلى سلامتهم أن يفوا بما التزموا به، وعلى أثر إبرام الاتفاق نقل الملك لويس، وفى معيته بعض النبلاء إلى فارسكور، وتسلم المصريون دمياط، بعد أن ظلت فى يد الفرنج أحد عشر شهراً وتسعة أيام، وخفتت أصوات النواقيس ثم اختفت، وارتفع فى آفاقها صوت المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة من جديد..

ثم أفرج عن الملك لويس بمجرد أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار صورية كما أخلى سبيل زوجته وأصحابه، ولم يبقَ سوى أخيه دى بواتييه الذى أفرج عنه بعد أن دفع مبلغًا مساويًا لما دفعه الملك..

وفى اليوم السابع من مايو أبحر الملك لويس إلى عكا تشيع موكبه ذكريات دامية، وما فتئت تلح على ذهنه صور الآلاف الذين طواهم الموت، والذين سيقوا أسرى فى ذلة وانكسار، والآمال التى تحطمت هنالك على شواطئ تلك البلاد العتيدة.. مصر..

وفى الوقت نفسه كان هناك فوج صغير من الأسرى المصريين بينهم عبد الأعلى بن سلمان وياقوتة الغجرية، كان هذا الفوج يزحف فى استبشار وسعادة صوب المنصور.

●●●

الفصل السادس والعشرون

كانت فرحة عدنان بن المنذر فرحة غامرة عندما علم أن صديقه عبد الأعلى ضمن الأسرى المسلمين القليلى العدد والذين حجزوا فى دمياط أثناء المعركة، ولهذا لم يفكر عدنان فى مغادرة المنصورة إلى القاهرة قبل أن يلتقى برفيق شبابه، وزميل جهاده، ولم يكن هناك ما يجعله يسارع بالعود إلى القاهرة سوى أمه التى طال تشوقه إليها، وما عدا ذلك فلم يكن هناك ما يجذبه إلى بيته . . وعلى الرغم من هذا، فقد كان فى قلبه بارقة ضئيلة من أمل تتعلق بزمردة من يدرى؟؟ قد تكون فى انتظاره فى القاهرة، وقد تبتسم له الحياة مرة أخرى، بعد أن تحقق أمله فى الخلاص من توران شاه وبقاء عبد الأعلى على قيد الحياة وانهزام الفرنجة.

لكن أمن المعقول أن تأتى له الحياة بكل ما يتمناه؟؟

لقد عاش طول حياته فى لهفة إلى أشياء كثيرة، غير أن الأقدار تعطى بمقدار حق، لكأن الإسراف والبذخ ليسا من طبيعتها، فما

عليه إذن إلا أن يقنع بما قسمه الله له، فالرضا بالقضاء والقدر عنصر مهم من عناصر الإيمان، وما دام فى العمر بقية فإن المستقبل يطوى بين ثناياه الكثير من المفاجآت والأسرار . . وظل ينتظر مجىء عبد الأعلى يومين كاملين.

وعندما توارت الشمس، وبدأ الليل ينشر رواقه على المنصورة وما جاورها، رأى عدنان قافلة تقبل بمحاذاة النيل على مدى البصر، فأسرع بجواده إلى هناك، ورفع عينيه ليرى عبد الأعلى فى مقدمة الركب يبتسم ابتسامته الهادئة التى لم يستطع الظلام الزاحف أن يطمسها، وقفز كلاهما من فوق جواده، وفتح عدنان ذراعيه ليستقبل أعز صديق لديه، ويغرق وجهه بالقبلات، ويضمه إليه فى حنان ولهفة، وأدرك عدنان فى هذه اللحظات أن الصداقة المبرأة من الشوائب والنقائص، الخالصة لوجه الله، هى أجمل اللحظات، كما أن الأخطار المشتركة أثناء ذلك الكفاح تزيد من ربط القلوب، واندماج مشاعرها.

وعندما أحس عبد الأعلى ذراعى صديقه تضغطان عليه فى حرارة وقوة، ربت على ظهره فى حنان، وقال:

– لا تسرف فى عواطفك فهناك من هى أحق منى بذلك.

فلم يغير عدنان من وضعه شيئًا، وأردف قائلاً:

– ليس من هو أعز منك.

- أنت تكذب . . . أتراك تصرُّ على الكلام لو علمت أن زمردة ضمن القافلة؟؟

فقال عدنان يائسًا : آه . . .

فلم يحاول عبد الأعلى عند ذلك أن يضيع الوقت ، بل جذب عدنان من يده وسار به ناحية مؤخرة القافلة ، دون أن يعى عدنان تمامًا ماذا يقصد صديقه ، وعندما بلغا أحد الجمال ، شده عبد الأعلى من مقوده عدة مرات حتى أناخه على أطرافه الأربعة ، واستقر على الأرض ، وهتف :

- ياقوتة . . .

وسمع صوتًا خلف الستار يقول :

- مَنْ؟

بينما همس عدنان :

- الغجرية؟؟

فقال عبد الأعلى :

- أجل . .

وأطلت ياقوتة من فتحة صغيرة ، فبدا وجهها الأسمر الفاتن ، وأهدابها السمراء الطويلة ، رغم الضوء الخافت الذى يصارع الظلام فى إصرار . . .

ونظر عدنان إلى ياقوتة . .

وحولت ياقوتة عينيها عن عبد الأعلى إلى عدنان . .

لحظات خاطفة ، ولكنها غاصة بالمشاعر والانفعالات العديدة ، وأطرقت ياقوتة الغجرية فى حياء وقد ساد وجهها حمرة الخجل ، ثم انفرطت دموعها دفعة واحدة فعادت إلى مجلسها خلف الستار ، بينما ظل عدنان مشدوهًا لا يكاد يصدق عينيه ، أمن المعقول أن تكون ياقوتة الغجرية هى زمردة؟؟ أيه ظروف قد جعلتها تفعل ذلك؟ وأية أقدار قد دفعتها إلى هذا المصير؟ وانتهت بها إلى ذلك المطاف؟؟ هل أتت فعلاً من أقاصى العراق هاربة واستطاعت أن تبلغ مصر ، ثم تقوم بذلك الدور العجيب فى تلك المعركة الرهيبة؟؟

لقد رآها عدة مرات من قبل لكن مرآها كان خاطفًا ، ولم يتمكن من رؤية وجهها الذى كانت تسدل عليه الخمار ، وهى بدورها لم تلتقِ به وجهًا لوجه فضلاً عن أنه لم يفكر فى مرة من المرات أن يحملق فيها ، وما الذى كان يدعوه إلى ذلك؟؟ كان زاهدًا فى كل النساء بعد أن رحلت عنه ، وكان لا يفكر إلا فى الحرب والمعركة الدائرة وتلك المآسى والآلام التى صادفت شبابه وطفولته .

ألا ما أشبهه بالإبل التى تخترق الصحراء فى لهيب القيظ

والجـدب ويكاد الظمـأ يقـتلهـا رغـم أن الماء مـحـمـول فـوق ظهورها . .

مرت هذه الخواطر كلها على ذهن عدنان- وهو واقف فى موقفه ذلك- مثل لمح البصر ، وشعر بأن عقله عاجز عن مواصلة التفكير ، بل خيِّل إليه أنه فى حلم من الأحلام المثيرة التى كان يمتلئ بها نومه ، ولهذا التفت عدنان إلى عبد الأعلى مستنجداً :

- ماذا أرى؟

فابتسم عبد الأعلى ابتسامته التقليدية ، وقبض على ذراع عدنان وسار به جانبًا ، وهو يقول :

- «زمـردة ! ! ! قـد تبدو الحـقـائق الدامـغـة فى بعض الأحـيـان وكأنها مجرد أوهام ، أنا شخصيًا لم أعد أجد فاصلاً كبيراً بين الأحلام والحقائق . . » ، وأخذ عبد الأعلى يسرد له قصته منذ أن وقع أسيراً فى يد الأعداء وما ذاقه عد ذلك من جلد وتعذيب ، ثم لقاءه مع ياقوته الغجرية فى معسكر الأسر ، ومحادثتها وكيف أنها عرفته عند سماعها اسمه ، ومفاجأته بالكشف عن شخصيتها الحقيقية ، ثم ذكرها لما تعرضت له منذ أن حملها توران شاه فى ركبه إلى حصن كيفا وهروبها منه ، وانتقالها من بلد إلى بلد حتى بلغت مصر والحرب تجثم بظلها الرهيب على الوادى الأخضر ، وأخيراً قال عبد الأعلى :

- عندما عرفت ذلك، تمنيت أن يكون لى جناحان حتى أطير إليك بالنبأ، ولكن كيف أفعل ذلك ودونه القيود والأسوار والرماح؟

وفى بيت عبد الأعلى بن سلمان بالمنصورة التقى الاثنان زمردة وعدنان . . وفى حرارة اللقاء، ذابت أحقاد الليالى، وآلام الحرمان الطويل، وبدت حماقات توران شاه الصريع وكأنها عبث طفل صغير، وبدت معركة الفرنجة وكأنها مغامرة شائقة لذيذة، وأطال عدنان النظر فى وجهها، وقال فى شبه ذهول :

- عندما تتحقق الآمال يا زمردة ينسى الإنسان إساءات الزمان، إن السعادة التى تملأ قلبى لا تدع فيه مكانًا لغير الحب الكبير للناس قاطبة . .

ولم يشب سعادتهما آنذاك إلا علم عدنان بوفاة أمه، لكنه جفف دموعه، وأخذ يتمتم بالدعوات الصادقة أن يكتب الله لها الجنة، ويثيبها عن صبرها وبلائها الجزاء الحسن . .

●●●

وبعد أيام قصدا القاهرة، وكانا عازمين على إتمام الزواج حسب الأصول المرعية، وعندما بلغا البيت، كان السكون يجلله، وآثار القدم عليه، والبستان المهجور قد جفت أغصانه، وانتشرت فيه النباتات الشوكية واتسعت مساحة الصبار، والنخلات المعوجة ما

فتئت قائمة، وأمام البيت جلس ذلك الشيخ الذى يتلو القرآن وهو يردد بصوت مرتعش من أثر الهَرم:

- ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وظلا برهة واقفين دون حراك، وأخيرًا قال:

- ادخلى يا زمردة.. سوف نبنى كل شىء من جديد.. والله معنا..

(تمت)

●●●

المراجع التاريخية

١ - لويس التاسع فى الشرق الأوسط، الدكتور جوزيف نسيم يوسف.

٢- الشرق العربى بين شقى الرحى، الدكتور حسن حبشى.

٣- معارك حاسمة فى تاريخ مصر، عبد الرحمن زكى «دمياط والمنصورة».

٤- مذكرات جوانفيل، جوانفيل.

٥- أعمال الفرنجة وحجاج بين المقدس، (الدكتور حسن حبشى).

٦- الحرب الصليبية الأولى، الدكتور حسن حبشى.

٧- شجرة الدر، سعيد العريان.

٨- شجرة الدر، جورجى زيدان.

٩- السلوك لمعرفة الملوك، المقريزى.

١٠- عقد الجمان، العينى.

١١- النجوم الزاهرة، أبو المحاسن.

١٢- مفرج الكروب، ابن واصل.

١٣- كتاب الروضتين، أبو شامة.

١٤- المختصر، أبو الفداء.

١٥- شذرات الذهب، ابن العماد.

كتب المؤلف

روايات:

١- الطريق الطويل .

٢- اليوم الموعود .

٣- فى الظلام .

٤- عذراء القرية .

٥- طلائع الفجر .

٦- ليل الخطايا .

٧- رأس الشيطان .

٨- الربيع العاصف .

٩- أرض الأنبياء .

١٠- النداء الخالد .

١١- الذين يحترقون .

١٢- ليل العبيد .

١٣- ابتسامة فى قلب شيطان .

١٤- الكأس الفارغة .

١٥- الرايات السوداء .

١٦- قاتل حمزة .

١٧- الظل الأسود .

١٨- نور الله .

مجموعات قصص قصيرة:

١٨- موعدنا غداً .

١٩- دموع الأمير .

٢٠- العالم الضيق .

٢١- عند الرحيل .

مسرحيات :

٢٢- على أسوار دمشق .

دراسات:

٢٣- إقبال الشاعر الثائر .

٢٤- شوقى فى ركب الخالدين .

٢٥- المجتمع المريض .

٢٦- الطريق إلى اتحاد إسلامي.

٢٧- الإسلامية والمذاهب الأدبية.

شعر:

٢٨- نحو العلا.

٢٩- أغاني الغرباء.

●●●